الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة: أحمد دراية (أدرار)

قسم: اللغة والأدب العربي

كليّة: الآداب واللّغات

تخصص: الأدب الجزائري

مذكّرة مقدّمة لنيل شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي (الأدب الجزائري)

الحنين إلى الوطن عند أحمد المقّري التّلمساني

من إعداد الطالب:

عقباوي موسى

تحت إشراف الدكتور:

كلالي مسعود

السنة الجامعية: 2021/2020

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
République algérienne populaire et démocratique
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
Ministère de l'enseignement supérieur et de la recherche scientifique

UNIVERSITE AHMED DRAYA - ADRAR	جامعة أحمد دراية - أدرار
BIBLIOTHÈQUE CENTRALE	المكتبة المركزية
Service de recherche bibliographique	مصلحة البحث البيبليوغرافي
N°.................B.C/S.R.B//U.A/2021	الرقم............م.م/م.ب.ب/ج أ/2021

شهادة الترخيص بالايداع

انا الأستاذ(ة): كلالي مسعود

المشرف مذكرة الماستر.

الموسومة بـــ: الحنين إلى الوطن عند أحمد المقري التلمساني.

من إنجاز الطالب(ة): عقباوي موسى

و الطالب(ة): /

كلية: الآداب واللغات

القسم: اللغة والأدب العربي

التخصص: أدب جزائري.

تاريخ تقييم / مناقشة: 2021/06/17

أشهد ان الطلبة قد قاموا بالتعديلات والتصحيحات المطلوبة من طرف لجنة التقييم / المناقشة، وان المطابقة بين النسخة الورقية والإلكترونية استوفت جميع شروطها.

وبإمكانهم إيداع النسخ الورقية (02) والاليكترونية (PDF).

- امضاء المشرف:

2021/06/21

مساعد رئيس القسم:

Create By PDF Scanner

بِسْمِ الله الرّحمنِ الرّحِيْمِ وصَلّى الله على الصّفوةِ

المختارِ من خلقه سيّدنا محمّد أفصح العرب

قاطبة، وخير من حنّ إلى خيرِ مكان (مكّة) وعلى

آله وصَحبه وسلّم تسليماً

قال الطائي:

كَمْ مَنْزِلٍ في الأرْضِ يألفُهُ الفتى

وحَنينُهُ أبداً لأوّلِ مَنزِلِ

المقدِّمة

المقدّمة

للإنسان والحيوان ميلٌ ونزوعٌ دائمٌ للوطن والأرض، فكم حنّت الإبل وبكت شوقاً إلى أوطانها ومرابضها، وكم ذرفت عيون المغتربين عن أوطانهم وجداً وشوقاً إليها؛ فالوطن له في قلب المرء مكانة مميّزة، خاصّة إذا كان بدوياً وهو الذي لا يرضى عن صحراءه القاحلة، ورماله الحارّة بديلاً مهما كان هذا البديل، وذلك هو الإخلاص والحبّ

وقد عرف الأدب العربي الحنين إلى الوطن، فنظم الشعراء فيه القصائد الطّوال عبّروا فيها عن مشاعر الحبّ والوفاء والصدق للوطن، فاشتهرت نجد والحجاز وغيرهما في الكثير من القصائد، ووقفوا طويلاً على أطلال الديّار و بكوها وكتبوا فيها وفي أهلها أعذب شعرهم، هذا ولم يقتصر الحنين على الشعر فقط بل وُجد أيضاً عند الكتّاب والمؤلّفين، فقد صُنّفت فيه كتبٌ مستقلة، وخُصّصتْ له فصول من كتب، ومن الأدباء من استفتح حديثه في كتبه بالحنين إلى وطنه كما فعل أديبنا وشاعرنا وعالمنا ومفسّرنا و محدّثنا وجاحظ مغربنا الإمام الشيخ " أحمد المقّري التلمساني" في كتابيه نفح الطيب، وأزهار الرياض؛ فقد حنّ فيهما إلى وطنه، وأرض تلمسان الطيّبة الندية، وكان قد اغترب عنها إلى بلدان المشرق، وهذا ما سيتمّ تفصيله في عرض هذا البحث، وتكمن أهميته في كونه يُسلّط الضوء على شخصيّة علميّة جزائريّة موسوعيّة ليس من السهل أنْ يجود الزمان بمثلها، وعلى موضوع الحنين الشائع في الأدب العربي قديماً وحديثاً فقلّما تجد شاعراً أو كاتباً إلاّ وله شيء عن وطنه

ولعلّ أهمّ الأسباب في اختياره هي أنّ: شخصيّة المقّري الموسوعيّة جديرة بالبحث والدراسة، فله علم باللّغة و الأدب و علم الكلام، والتفسير والحديث وقوّة البديهة والحفظ والرواية والمعرفة العجيبة بأخبار الأندلس والمغرب، وغير هذا كثير
كتاب نفح الطيب الذي هو محور الدراسة هو كتاب تراثي موسوعي، وهو من أهمّ ما كُتِبَ في تاريخ الأندلس وحضارتها، وليس هذا فحسب بل تجد فيه الأخبار، والأدب والتراجم، والتاريخ، والروايات والنصوص الكثيرة، والأمر نفسه مع كتابه الثاني أزهار الرياض فقد أورد فيه كلّ نفيس وجميل في ترجمته للقاضي المغربي عياض، هذا ما يجعل الكتابين جديرين بالبحث خاصّة أنّ الكتب التراثيّة في عصرنا لم تعد تجد من يفتحها، فما بالك بمن يدرسها، فهي منسيّة ومُهملة حتّى اكتشافها كان على أيدي المستشرقين للأسف

ولهذا البحث أهداف منها: أنّ الحنين إلى الوطن لا يُدرس غالباً إلّا حول شخصيّات مشرقيّة، لهذا كانت هذه محاولة لرد الاعتبار للأدب المغاربي والجزائري خاصّة، إلى جانب إبراز شخصيّة المقّري الموسوعيّة العلميّة، ونفض الغبار عن كتبه التراثية كنفح الطيب وأزهار الرياض، التي هي من أنفس ما تمّ تأليفه في الأدب المغربي والأندلسي، والتاريخ والحضارة فيهما

ومن العوائق التي اعترضتني : أنّ موضوع الحنين عند المقّري غير مدروس من قبل، فلم أعثر على بحث جادٍّ وعميق أنطلق منه استكمالا لمسار المعرفة الإنسانية التي تعتمد تراكم جهود الباحثين، بل كلّ ما وجدته هو بعض الإشارات العابرة حوله
و قد اعتمدت المنهج الوصفي نظراً لتناسبه مع طبيعة هذه الدراسة التي تحتاج إلى وصف شامل لما جاء فيها

ومن هنا تُطرح الإشكالية التالية:
ما علاقة الحنين بالغربة؟ هل هي أحد الأسباب المثيرة له؟ هل عَرف الأدب العربي الحنين إلى الوطن؟ وإنْ كان فما هي أهمّ أسبابه؟ وهل عُرفَ عند المؤلّفين العرب؟ وما هي أنواع التأليف فيه؟
من هو أحمد المقّري؟ وما مكانته العلمية؟ وما هي أهمّ جوانب ثقافته؟ ما أسباب رحلته عن بلده تلمسان الحبيبة إلى قلبه؟ هل كان للأوضاع السياسية المضطربة في المغرب ــ في ذلك الوقت ــ دخل في ذلك؟

لماذا يعتبر كتاب نفح الطيب أهمّ وثيقة تاريخية وأدبية عن تاريخ الأندلس وحضارتها الإسلاميّة التي زالت؟ وعلى أي شيء اشتمل هذا الكتاب الموسوعي؟ كيف وردت تلمسان فيه؟ وفي أي سياق ؟ لماذا أورد مجموعة من القصائد في مدحها؟ وما هي جوانب حنينه إليها فيه؟ وما أوجه التشابه و الاختلاف بينه وبين أزهار الرياض؟ و ما هو موضوعه الأصلي؟ ولماذا صدّره المقّري بحنين إلى وطنه؟ وما جوانب هذا الحنين؟

وللإجابة عن هذه الإشكالية قسّمت البحث إلى فصلين: الفصل الأوّل تعرّضت فيه للحنين إلى الوطن في الأدب العربي قبل عصر المقّري، وفيه تعريف بالحنين و علاقته بالغربة، وأهم أسبابه، وضربت لذلك أمثلة من الشعر العربي، وذكرت بعض الكتب التي تمّ تأليفها فيه، أمّا الفصل الثاني فهو حول الحنين إلى الوطن عند المقّري من خلال كتابيه، وفيه ترجمته، ونسبه ومولده، وثقافته، ومؤلّفاته، وعصره، و رحلاته، وفي هذا الفصل أيضا التعريف بنفح الطيب، والتعريف بتلمسان، وقصائد في مدحها، والحنين فيه إليها، و كذلك التعريف بأزهار الرياض، والحنين فيه

ومن الدّراسات السابقة لموضوع الحنين في الأدب العربي بشكل عام نجد: كتاب الحنين والغربة في الشعر العربي ليحيى الجبوري، وهذا بحثٌ قيّمٌ ومفيدٌ، تحدّث فيه المؤلّف عن الحنين وعلاقته بالغربة واستشهد بالأقوال وضرب الأمثلة من الشعر العربي وذكر أسماء مؤلّفات فيه، والكتاب الثاني هو لإبراهيم الأبياري بعنوان الوطن في الأدب العربي، تعرّض فيه لموضوع الوطن والحنين إليه خاصّة عند البدو والأعراب ومدى تعلقهم بالأرض رغم كونها صحراء

أمّا الدراسات السابقة للمقّري فنجد: كتاب المحبّي الذي بعنوان " خلاصة الأثر" وهو أقدم من ترجم له، وعاش في عصر قريب من عصره، كذلك من الدراسات الجادة والممتازة مقال حسين مؤنس بعنوان " المقّري أغرب سفير" ضمن كتاب الأندلس صفحات مشرقة، وحسين مؤنس هو أحد أهمّ الدارسين المحدثين للحضارة والتاريخ في الأندلس، وكذلك " عبد الغني حسن " من خلال كتابه " المقّري صاحب نفح الطيب "، أمّا الحنين عند المقّري فلم أعثر على أي بحث عميق فيه _كما سبق_ باستثناء إشارات قام بها أبو القاسم سعد الله في سياق حديثه عن المقّري في كتابه تاريخ الجزائر الثقافي

وأهمّ المصادر والمراجع المستعملة في هذا البحث فإلى جانب ما ذكر سابقاً لدينا:
المقّري: نفحُ الطّيب من غُصْنِ الأندلسِ الرّطيب وذكر وزيرها لسان الدّين بن الخطيب
المقّري: أزهار الرياض في أخبار عياض

الفصل الأول: الحنين إلى الوطن في الأدب العربي (قبل عصر المقّري)14/1

المبحث 1: الحنين في اللغة والاصطلاح 1

المطلب أ: لغة 1

المطلب ب: اصطلاحا 1

المبحث 2: علاقة الحنين بالغربة 6/2

المبحث3: دواعي الحنين إلى الوطن 12/7

المطلب أ: فقدان الأحبة والشوق إليهم 8/7

المطلب ب: الرحلة والسفر 10/8

المطلب ج : النفي والأسر 12/10

المبحث 4: الحنين إلى الوطن عند الكُتّاب 14/13

المبحث1: الحنين في اللغة والاصطلاح

المطلب أ: الحنين في اللغة

وردت هذه الكلمة في لسان العرب «والحَنين الشديدُ من البكاء والطّرب، وقيل هو صوت الطّرب، كان ذلك عن حُزْنٍ أو فرحٍ، والحنينُ الشّوقُ وتوقانُ النفس، والمعنيان متقاربان... وحنَّت الإبلُ نزعتْ إلى أوطانها أو أولادها والناقة تَحنُّ في أثر ولدها حنينا تطرب مع صوت، وقيل حنينُها نزاعها بصوت أو بغير صوت»[1]

كلمة الحنين في اللغة إذا تدور حول معاني الشوق والتوقان والبكاء والعطف والحنان، فالذي يغترب عن أهله ووطنه يشتاق إليهم ويبكي من شدة حنينه إليهم، كذلك الناقة تحن إلى ولدها شوقا إليه، ونستنتج من تعريف ابن منظور(ت711ه) أنّ الحنين يعرفه البشر والحيوان على السواء، فكلاهما يحن إلى أهله ووطنه، وهذا المعنى اللغوي لا يختلف كثيرا عن المعنى الاصطلاحي لهذه الكلمة

المطلب ب: الحنين اصطلاحا

الحنين إلى الوطن هو أن يُعبّر الكاتب أو الشاعر عن شوقه إلى وطنه وحبّه له، وقد وُجد الحنين منذ وُجد الإنسان الأول فهو كما يرى "يحيى الجبوري" «طبيعة في النفوس البشرية، وفي البدوية خاصة، وهو منسجم مع طبيعة العربي الحسّاسة في بيئته الصحراوية الواسعة ولم يقتصر الحنين على البشر بل شمل الحيوان فالإبل تحن إلى أولادها ومرابضها، ولذلك كان غريزة في نفس العربي في باديته، وارتبط الحنين إلى الأوطان بكرامة الإنسان واعتزازه، وكانت الغربة عن الوطن همّاً شديداً، ويُروى أنّه قيل لأعرابي: ما الغبطة؟ قال: الكفاية ولزوم الأوطان، والجلوس مع الإخوان، وقيل ما الذّل؟ قال: التنقل في البلدان والتنحّي عن الأوطان»[2]

الحنين إلى الأوطان إذا غريزة في النفوس البشرية، وخاصة عند الإنسان البدوي لأنّ البيئة المحيطة به مُهيئة لأن تجعله يحن إليها فهو يرى إبله تحن إلى أولادها ومرابضها

تطرّق إلى هذا الموضوع قديما الجاحظ(ت 255ه)* فألّف فيه رسالة الحنين إلى الأوطان، ذكر فيها الكثير من الأقوال والشعر في الحنين إلى الوطن ومن ذلك مثلا «وقالت الحكماء أكْرَمُ الخيل أجزعها من السوط، وأكيس الصبيان أبغضهم للكُتّاب، وأكرم الصفايا أشدّها ولها إلى أولادها، وأكرم الإبل أشدّها ملازمة لأمّها، وخير الناس آلفهم للناس... وقالت العرب حماك أحمى لك، وأهلك أحفى بك، وقيل الغربةُ كربة، والقِلّة ذِلّة وقال:

لا تَرْغَبُوا إخوتي في غُرْبَةٍ أبداً إنّ الغريبَ ذليلٌ حَيْثما كانا »[3]

هذه نظرة الجاحظ إلى هذا الموضوع، وزاد على هذا في رسالته الكثير من الأقوال التي يُعزز بها رأيه ولا يسع المجال لذكرها

---

[1] ينظر : ابن منظور: لسان العرب: مادة(حَنَنَ) ج16ص285 إصدار وزارة الأوقاف السعودية

[2] يحيى الجبوري: الحنين والغربة في الشعر العربي ص09 دار مجدلاوي الأردن ط2008/1

[3] ينظر: الجاحظ: الحنين إلى الأوطان ص15و16 دار الرائد العربي بيروت ط1982/2

*الجاحظ= أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي البصري العالم المشهور صاحب التصانيف في كلّ فنٍّ، له مقالة في أصول الدين، وهو معتزلي، من أحسن تصانيفه وأمتعها كتاب " الحيوان" جمع فيه كلّ غريب، وكذلك "البيان والتبيّن" وهي كثيرة جدّاً، وكان مع فضائله مُشوّه الخلق مات في البصرة وقد نيّف على تسعين سنة رحمه الله(ينظر) ابن خلكان وفيات الأعيان ج 3 ص470و474 ت إحسان عبّاس دار صادر بيروت 1978

المبحث2: علاقة الحنين بالغربة

لاشك في أنّ من أهم أسباب الحنين إلى الوطن هو الغربة عنه، والغربة في معاجم اللغة تدل على البعد والنزوح عن الوطن، ويذهب "يحيى الجبوري" إلى أنّ الغربة تدل على معنيين: الأول يدل على الغربة المكانية، والثاني على الغربة الاجتماعية[4]

ومن أمثلة النوع الأول (الغربة المكانية) قصّة "ميسون بنت بحدل" زوجة " معاوية" والتي ضاقت بحياة الحاضرة بالشام، واشتاقت إلى أهلها في البادية، فقالت أبياتا فيها حنين إلى أهلها، وأرضها، وسمعها معاوية، ووصفته بالعلج العليف، فقال لها: أما رضيت يا ابنة بحدل حتّى جعلتني بالعلج العليف؟! فالحقي بأهلك، والأبيات التي قالتها منها:

لَبيتٌ تَخْفِقُ الأرواحُ فيه ... أحبُّ إليّ من قصر مُنيفِ
وبَكْرٌ يتبع الأظعانَ سقبا ... أحبُّ إليّ من بغْلٍ زفوفِ
ولبسُ عباءةٍ وتقرّ عيني ... أحبُّ إليّ من لبس الشُّفوفِ
وأكلُ كسيرة من كِسْرِ بيتي ... أحبُّ إليّ من أكل الرغيفِ
وخِرْقٌ من بني عمّي نحيفٌ ... أحبُّ إلي من عِلْج عليف
خشونةُ عيشتي في البدو أشهى ... إلى نفسي من العيش الطريف[5]

فميسون هذه التي تزوجها " معاوية" ، ورغم رفاه العيش معه في الشام، وهو الخليفة والحاكم للدولة الإسلامية في ذلك الوقت (الدولة الأموية)، رغم هذا كلّه لم ترض ميسون بحياة المدينة، فقصيدتها هذه كلّها شوق وحنين إلى أهلها وباديتها، مهما كانت الحياة صعبة وقاسية وخشنة فيها، فهي تحبّها ولا ترضى عنها بديلا، وحياة المدينة وقصور بني أمية رغم نعومتها وجمالها وجمال الحياة فيها، رغم ذلك لم تعجب ميسون، فكانت دائما تحسّ بالغربة بسبب بعدها عن هواء البادية الطلق حيث الحرية التامة في الحياة، وفي قصيدتها هذه كانت تقارن بين الحياة في المدينة والحياة في البادية، فكانت في كلّ مرّة تقول أحبّ إليّ أي كل ما في البادية رغم صعوبته وقسوته أحبّ إليها ممّا في المدينة

واستغرب " إبراهيم الأبياري" كيف يُفضّل العرب بلدانهم رغم أنها صحاري قاحلة ورمال « وكان إيثار العرب لبلادهم أبلغ، وأصدق فليس بغريب على من أنبته الله على أرض اجتمع له على سطحها ماء جار، وظلّ وارف، ألّا يُؤثر عليها، وإنّما الغريب على من ينبته الله على أرض ترابها رمال، وماؤها سراب، وطيرها جراد، ثمّ لا يؤثرها على جنات وعيون»[6]

هكذا كان حبُّ العربي لوطنه، وهكذا كان وفاؤه له، كان إذا اغترب وتذكّر وطنه فاضت عيناه بالدموع، وعبّر عن شوقه شعرا، فهذا "أشجع السلمي"* يقول حين تذكّر الحجاز:

«أحِنّ إلى الحِجَازِ وسَاكنيه ... حَنينَ الإلْفِ فَارِقَهُ القَرِيْنُ
وأبْكي حِين تَرْقُد كلّ عَينٍ ... بكُاء بين زَفْرته أنِين
فأعْذِرْ مَنْ رَأَيْتَ عَلى بُكاء ... غَريب عَنْ أحبّته حَزين»[7]

---

[4] ينظر: يحيى الجبوري: الحنين والغربة ص17

[5] ينظر: البغدادي: خزانة الأدب ج 8 ص503 و504 ت عبد السلام هارون ط مكتبة الخانجي القاهرة / أو ينظر: يحيى الجبوري الحنين والغربة ص27

[6] إبراهيم الأبياري: الوطن في الأدب العربي ص 45 وزارة الثقافة والإرشاد القومي المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة 1962

[7] نفسه ص 55/ أشجع السلمي= نشأ بالبصرة قال الشعر وأجاد وعُدّ من الفحول(ينظر) الأغاني ج18ص135 ت إحسان عبّاس دار صادر ط2002/1

فالباكي على وطنه معذور حسب " أشجع السلمي"، وهو كذلك، فالشوق إلى الوطن يدل على الوفاء والإخلاص والصّدق «وقال الأصمعي: دخلت البادية فنزلت على بعض الأعراب فقلت أفدني، قال: إذا شئت أن تعرف وفاء الرجل، وحسن عهده وكرم أخلاقه وطهارة مولده فانظر إلى حنينه إلى أوطانه، وتشوقه إلى إخوانه، وبكائه على ما مضى من زمانه»[8]

هذا فيما يخصّ الغربة المكانية، وعلاقتها بالحنين إلى الوطن، أمّا الغربة الاجتماعية، وهي أنْ يكون الفرد في المجتمع أي في وطنه ولكنّه غريب فيه، ومن أمثلة ذلك المتنبي* (ت 354ه) « فقد كان يشعر بالغربة في مجتمعه، فغربته غربة نفسية نابعة من تضخّم الأنا، والتمرّد وحبّ الحكم، والتسلّط، وقد نشأ المتنبي ناقما ثائرا على الحياة الفاسدة في عصره، حيث الفسق، والتّرف الذي يعيش فيه الملوك، والأمراء، وقد رأى أنّ الخلافة قد صارت نهبا يتحكم فيها السفهاء، والجهّال من جنود التّرك الذين بغوا، وأفسدوا، وظلموا، وقد أعلن معارضته للفساد، فأدى به إلى السّجن، وحاول أن يصل للحكم فلم يستطع أن يُحقق طموحه، وعاش غريبا في مجتمعه »[9]

ولذلك يقول عندما أحسّ بالغربة الاجتماعيّة:

« ما مقامي بأرض نخلة إلّا كَمُقامِ المسيح بيْنَ اليهوْد»[10]

فهو يُشبّه حاله بحال "عيسى" عليه السّلام مع اليهود الذين لم يؤمنوا بما جاءهم به، ولم يتبعوه، كذلك هو لم يسمع له حكّام عصره رغم ما قدّم لهم من نصح، ويقول أيضا:

« ضَاقَ صَدْرِي وطَالَ في طَلَبِ الرّزْ قِ قِيامي وقلّ عنه قُعُودي
أبداً أقطعُ البلادَ ونَجْمي في نحوسٍ وهمّتي في سُعُودِ
ولعلّي مؤمّلٌ بعض ما أبْ لغُ باللطْفِ من عزيزٍ حَميدِ »[11]

ولعل هذه الغربة الاجتماعية هي ما جعله كثير الترحال من بلد إلى آخر فلم يهتمّ بمكان، ولا اشتاق إلى زمانه باستثناء جدّته لهذا قال:

« لا بقومي شرُفتُ بل شرفوا بي وبنفسي فخرْتُ لا بجدودي »[12]

ويقول ذاماً أهل زمانه:

« فؤادٌ ما تسليه المُدامُ وعُمْرٌ مثلُ ما تَهَبُ اللّئامُ
ودهرٌ ناسُهُ ناسٌ صِغَارٌ وإنْ كانت لهم جُثثٌ ضِخامُ
وما أنا بالعيش فيهم ولكن مَعْدِنُ الذهبِ الرَّغامُ
أرانبُ غيرَ أنّهمُ ملوكُ مُفَتّحةٌ عيونُهُم نيامُ»[13]

---

[8] إبراهيم الأبياري: ص 48

[9] يحي الجبوري: ص 118

* المتنبي: من أهل الكوفة، قدم الشام في صباه، وجال فيه واشتغل بفنون الأدب ومهر فيها وكان من المكثرين من نقل اللغة والمطلعين على غريبها وحوشيها، ولا يُسأل عن شيء إلّا استشهد فيه بكلام العرب من النظم والنثر واعتنى العلماء بشعره كثيراً (ينظر) ابن خلكان ج1ص121

[10] المتنبي: ديوانه ص 29 شرح عبد الرحمن البرقوقي مؤسسة هنداوي القاهرة (د ط)

[11] المصدر نفسه 386

[12] نفسه 386

[13] نفسه ص 1243

فالمتنبي هنا يذم حكّام عصره، وقد ساد عصر المتنبي تسلّط الأعاجم، وتحكمهم في الخلافة العبّاسية فصاروا يُنصّبون من يريدون، وينزعون عن الحكم من لا يريدون، فالخليفة صار عبارة عن لعبة في أيديهم يُنصّب اليوم ويُستبدل غدا، أو يُقتل فما كان من المتنبي إلّا أن يذم أهل عصره

وليس ببعيد من هذا العصر، العصر الذي عاش فيه أبو حيّان التوحيدي (ت414 ه)* الذي عانى ويلات الغربة النفسية والاجتماعية فقد عاش في زمن تفكك الدولة العبّاسية، وانقسامها إلى عدّة دويلات أشهرها دولة بني بويه التي قصد وزيرين من وزرائها (ابن العميد، والصّاحب بن عبّاد) إلّا أنّه لم يحظ عندهما بشيء، وهذا ما ترك في نفسه ألما وإحساسا بالغربة، وكان قد ساد عصره الفساد حيث كان الأمراء والوزراء يعيشون حياة الترف والثراء الفاحش بينما الرعية الضعيفة لا تكاد تجد رغيف خبز من شدّة الفقر والجوع وكذلك كانت حياة أبي حيّان فقد عانى الفقر، وقد وصف غربته في كتابه " الإشارات الإلهية " حيث قال: « وقد قيل: الغريب من جفاه الحبيب، وأنا أقول: بل الغريب من واصله الحبيب بل الغريب من تغافل عنه الرقيب، بل الغريب من حاباه الشريب* بل الغريب من نُودي من قريب بل الغريب من هو في غربته غريب .. بل الغريب من ليس له من الحق نصيب... الغريب من إن حضر كان غائبا وإن غاب كان حاضرا، الغريب إن رأيته لم تعرفه، وإن لم تره لم تستعرفه...»[14]

وقد قال له أحد أصحابه يوما « ما ظننت أنّ الدنيا ونكدها تبلغُ من إنسان ما بلغ مني: إن قصدت دجلة لأغسل منها نضب ماؤها، وإن خرجت إلى القفار لأتيمّم بالصعيد عاد صلدا أملس »[15] فهذا حال صاحبه المنحوس المشؤوم، وكذلك كانت حاله فلم يجد سوى البؤس والشقاء والحرمان

من أسباب غربته وهو في بلده ومجتمعه كان الفقر، حيث عانى أبو حيّان الفقر المدقع إلى درجة أنّه لم يكن يجد شيئا يأكله، ولهذا يقول في نهاية كتابه " الإمتاع والمؤانسة " « خلصني أيّها الرجل من التكفف، أنقذني من لبس الفقر، أطلقني من قيد الضر، اشترني بالإحسان إليك، اعتبدني بالشكر، استعمل لساني بفنون المدح، اكفني مؤونة الغداء والعشاء، إلى متى الكُسيرة اليابسة، والبُقيلة الذاوية، والقميص المرقّع، إلى متى التأدم بالخبز والزيتون؟ قد والله بحّ الحلق، وتغيّر الخلق، الله الله في أمري، اجبرني فإنّي مكسور، اسقني فإنّني صدٍ، أغثني فإنّي ملهوف...قد أذلني السفر من بلدٍ إلى بلدٍ، وخذلني الوقوف على باب باب، ونكرني العرف بي، وتباعد عني القريب مني»[16]

هكذا كانت غربة التوحيدي، ويبدو أنّ حظّه كان تعيساً جداً فلم يجد شيئاً لا في وطنه " بغداد " ولا في غيرها من البلدان التي قصدها فكان غريبا في وطنه بل وبين الناس كان غريباً وأينما ذهب

---

[14] ينظر التوحيدي: الإشارات الإلهية ص80 ت عبد الرحمان بدوي ط فؤاد الأول القاهرة /1950/ الشريب= النديم

* التوحيدي: قال عنه ياقوت: كان متفننا في جميع العلوم من النحو واللغة والشعر والأدب والكلام، وكان جاحظيا يسلك مسلكه في تأليفه، فهو شيخ في الصوفية، وفيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة ومحقق الكلام ومتكلم المحققين، فرد الدنيا لا نظير له ذكاء وفطنة وفصاحة، تعرّض للطعن في دينه إلى درجة تكفيره من قِبل الحافظ الذهبي الذي قال عنه إنّه كان عدوا لله خبيثا، وكذلك ابن الجوزي الذي اعتبره زنديقا، وسبب هذا هو بغضهم للصوفية، قصد التوحيدي ابن العميد و الصاحب بن عباد فوجد عندهما سوء المعاملة فصنّف في ذمهما كتابا (ينظر) معجم الأدباء ج5ص1930 ت إحسان عبّاس دار الغرب الإسلامي بيروت ط1993/1 /والسبكي: طبقات الشافعية الكبرى ج5ص287 ت عبد الفتاح الحلو ومحود الطناجي دار إحياء الكتب العربية

[15] ياقوت: معجم الأدباء ج 5 ص1926

[16] ينظر التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة ص475 ت أحمد جاد دار الغد الجديد القاهرة ط2009/1

وهناك نوع آخر من الغربة وهي غربة الموت، فهذا مالك بن الريب * الذي أحسّ بقرب الموت منه، فرثى نفسه وهو حيّ، وفي رثائه هذا اشتاق وحنّ إلى وطنه، أو بالأحرى إلى أن يموت في وطنه فكان ممّا قال:

« تذكرتُ من يبكي عليّ فلم أجدْ سوى السّيف والرمح الرُّديني باكيا
وأشقرَ محبوكٍ يجرُّ عنانَهُ إلى الماءِ لم يتركْ له الموتُ ساقيا
يُقادُ ذليلاً بعدما مات ربُّهُ يُباعُ ببخْسٍ بعدما كان غاليا
ولكنْ بأكناف السُّمينة نسوةٌ عزيزٌ عليهنّ العشيّةَ مابيا
صريعٌ على أيدي الرجالِ بقفْرةٍ يُسوونَ لحدي حيثُ حُمّ قضائيا »[17]

هذه الأبيات أوردها " يحيى الجبوري" وقال إنّ مالك بن الريب كان يعزُّ عليه أن يموت غريبا فلا يبكي عليه أحد، فهو يتحسّر أن يُدْفن في الصّحراء وحيدا لا يحزن عليه غير فرسه وسلاحه[18]

ويظهر أنّ مالك بن الريب كان يحبّذ أن يموت بين أهله، وابنتيه، فهذا يُخفّف عليه الموت، وهو نوع من الوفاء والإخلاص للأرض والوطن حتّى في لحظات الموت لهذا يقول :

« أقُلّبُ طَرْفي حَوْلَ رحْلي فلا أرى به من عُيون المؤنساتِ مُراعيا
وبالرّمل متّا نسوةٌ لو شَهِدْنني بَكَيْنَ وفَدّيْنَ الطبيبَ المداويا
فمنهنّ أمي وابنتاي وخالتي وباكيةٌ أخرى تُهيجُ البواكيا »[19]

إذا الموت بين الأهل، وفي أرض الوطن أفضل وأحبّ إلى مالك بن الريب من الموت بعيدا عنه، ومطلع هذه القصيدة هو:

« ألَا لَيْتَ شِعْرِي هل أبيتنّ ليلةً بجنب الغَضَى أزجي القِلاصَ* النواجيا
فليت الغضى لم يَقْطَع الرّكبُ عَرْضَه وليت الغَضى مَاشَى الركابَ لياليا
لَقَدْ كان في أهلِ الغَضَى لودنا الغضى مزار ولكن الغضى ليس دانيا »[20]

والغضى هذا الذي كرره الشاعر ست مرات، هي رمز لوطنه وهو نوع من نبات الصحراء، ينبت في وطنه حسب تحليل "عبد القادر القط" ، وممّا قال مالك بن الريب فيها أيضاً:

---

[17] يحيى الجبوري ص59

*مالك بن الريب= كان شاعرا، فاتكا لصّاً، ومنشؤه في بادية بني تميم بالبصرة من شعراء الإسلام، في أول أيام بني أمية، مرض مالك عند قفول سعيد بن عثمان إلى خراسان؛ فلمّا أشرف على الموت تخلّف معه مُرّة الكاتب ورجل آخر من قومه من بني تميم وهما اللذان يقول فيهما:

أيا صاحبي رحلي دنا الموت فانزلا برابية إنّي مقيم لياليا

وهذا البيت من قصيدة طويلة قالها يرثي نفسه، وقال أبو عبيدة الذي قاله ثلاثة عشر بيتا والباقي منحول ولّده الناس عليه (ينظر) الأغاني ج22ص211

[18] ينظر: المرجع السابق يحيى الجبوري ص59

[19] نفسه ص59

[20] عبد القادر القط: في الشعر الإسلامي والأموي ص111 دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت

*القِلاص= جمع قلوص وهي الناقة

« ولمّا تراءت عند مَرْوَ منيّتي وخلّ بها جِسْمِي وحَانَتْ وفَاتيا
أقول لأصحابي ارفعوني فإنّه يقرُّ لعيني أنْ سُهيْلٌ بداليا
أقيما عليّ اليومَ أو بعضَ ليلةٍ ولا تُعجلاني قد تبيّن شانيا
خُذاني فَجُرّاني بثوبي إليكما فقَدْ كُنْتُ قَبْلَ اليومِ صَعْباً قياديا »[21]

وقد أجمع النقّاد والدارسون لهذه القصيدة على أنّها من أعظم مراثي النفس، وفيها من الحرقة، والشوق، والغربة والتمزّق، والانفطار ما فيها، ولقد صوّرت مدى تعلّق العربي بأرضه ووطنه أحسن تصوير، إذ الشاعر يحتضر ومع ذلك لم ينس وطنه وأهله ولهذا قال:

« وقوماً على بئر السُّمينة* أسْمِعا بها الغُرّ والبيض الحِسَان الروانيا
بأتكما خلّفتماني بقفرةٍ تهيلُ عليّ الريحُ فيها السّوافيا*
يقولون لا تبعدوهم يدفنوني وأين مكان البُعْدِ إلّا مكانيا
غداةَ غَدٍ يا لهفَ نفْسِي على غدٍ إذا أدْلَجُوْا عني وأصْبَحتُ ثاويا
فيا صاحباً إمّا عرضتَ فبلّغنْ بني مازنٍ والرّيب أنْ لا تلاقيا
وعَرّ قَلُوصي في الرِّكاب فإنّها تفلّق أكْبادا وتُبكي بواكيا* »[22]

عقّب عبد القادر القط عليها بقوله: « ولا شكّ أنّ القصيدة بما فيها من انفعال حاد وشعور قوي بالمفارقة بين الموت والحياة وشوق إلى الأهل والأحباب والديار وإشفاق أليم على النفس، رثاء شخصي نابع من إحساس الشاعر بذاته، لكننا نستطيع مع ذلك أن نلتمس فيها ــ دون شطط ــ كثيرا من الصور والعبارات التي يمكن أن تكون رموزاً إلى شعور يتجاوز الإحساس الشخصي الذاتي ليعبّر عن إحساس حضاري عام في المجتمع العربي حينذاك، فهذا التشبث العجيب بالغضى وترداد ذكره خمس مرّات في ثلاثة أبيات متعاقبة، مقروناً بتمني العودة إليه تارة، وبالندم على فراقه تارة أخرى، يمكن أن يكون رمزاً لحنين عربي عام إلى الحياة العربيّة البدوية القديمة التي يجري إلفها في نفس العربي مجرى الدماء، وبخاصة إذا ذكرنا أن الغضى شجر لا ينبت إلّا في الرمل، أي أنه يصلح رمزاً لحياة الصحراء»[23]

هذا فيما يخص الغربة وما تعلّق بها من حنين وأشواق

---

[21] المرجع السابق عبد القادر القط ص 111
[22] نفسه ص 112
بئر السمينة= اسم بئر في وطن الشاعر/ السوافي = ما تحمل الريح من تراب/ قلوصي= ناقتي وتعرية الناقة من رحلها دليل على موت صاحبها/ تفلق الأكباد= تصدعها من الحزن
[23] نفسه ص113

المبحث: 03 : دواعي وأسباب الحنين إلى الوطن :

لا يمكن الإحاطة بكلّ أسباب الحنين إلى الوطن، لأنّها تختلف باختلاف الأشخاص، ولهذا سأذكر أهمّ الأسباب التي يمكن أن تكون مشتركة عند الكثير من الكتّاب والشعراء

أ: فقدان الأحبة والشوق إليهم:

لعلّ هذا السبب من أهمّ الأسباب المثيرة للحنين، وهو فقدان الأحبّة، وما حبّ الديار إلّا من حبّ أهلها كما قال الشاعر:

وما حبّ الديار شغفن قلبي ولكن حبّ من سكن الدِّيارا

وعلى ذكر الديار فقد شاع في العصر الجاهلي شعر الأطلال أو بكاء الأطلال، ويحدثنا " يحيى الجبوري" عن الشعر فيقول: « وإذا تركت القبيلة أرضها إلى أرض أخرى يبقى الحنين إلى تلك الأرض الأولى، فحين يمرُّ بها أو يقف عند أطلالها، ويبكيها، ويبكي أهلها، فليس للأرض مكانة دون ساكنيها، وإذا اغترب الجاهلي عن أرضه، وأهله كثُر حنينه إلى الديار، وإنْ كانت خرائب، وأطلالا»[24]

في العصر الجاهلي حنّ أو اشتاق " حاتم الطائي "* إلى وطنه " طيء" فقال:

« حنَنْتُ إلى الأجبالِ أجبالِ طيّء وحنّتْ قلوصي أنْ رأت سوطَ أحمرا
فقلتُ لها إنّ الطريق أمامنا وإنّا لمُحيو رَبْعَنا إنْ تَيسّرا
تنادي إلى جاراتها أنّ حاتما أراهُ لَعَمري بعدنا قد تغيّرا
تغيرتُ إنّي غير آتٍ لريبةٍ ولا قائلٍ يوماً لذي العُرْف مُنكرا »[25]

فحاتم في هذه الأبيات يعبّر عن مدى شوقه وحبّه لوطنه، وأهله فيه، بل ويشتاق إلى جباله وأرضه وربوعه، وجيرانه

والجدير بالذكر هو أنّ استهلال القصائد العربيّة بالمقدّمات الطللية كان سائداً بشكل كبير في العصر الجاهلي، فقلّما تجد شاعراً يبدأ قصيدته دون مقدّمة طللية لها، وحتّى في العصور اللاحقة للعصر الجاهلي كان الأمر كذلك إلى أنْ ظهر " أبو نواس "* وثورته على الأطلال، واستبدالها بالخمر فكان يقول:

« دع الأطلالَ تسفيها الجنوبُ وتُبلي عهد جِدّتها الخطوبُ
وخلِّ لِراكِب الوجناء أرضا تَخِبُّ بها النجيبةُ والنجيبُ »[26]

أمّا إذا رجعنا إلى الشعراء الذين وقفوا على الأطلال، فنجد أنّهم قد أطالوا الوقوف، وذرفوا الدموع فوق هذه الأطلال، حتّى أنّ " عنترة العبسي "كان يكلّمها فلا تجيبه، ولذلك يقول:

---

[24] الحنين والغربة ص 20

[25] حاتم الطائي: ديوانه ص21و22 شرح أحمد رشاد دار الكتب العلمية بيروت ط2002/3

*حاتم الطائي= شاعر جاهلي، يُضرب به المثل في الكرم، وله فيه قصص شهيرة ذكرها أبو الفرج، وغيره (ينظر) الأغاني ج17ص260

[26] أبو نواس: ديوانه برواية الصولي ص69 ت بهجت عبد الغفور الحديثي دار الكتب العلمية أبوظبي ط2010/1

*أبو نواس= الحسن بن هانئ، ولد بالبصرة، وبها نشأ ثمّ خرج للكوفة مع والبة بن الحباب، وهو فارسي، وأمّه أهوازية اسمها جُلْبان، قال اسماعيل بن نوبخت: ما رأيت قط أوسع علماً من أبي نواس، اشتهر بشعر الخمر والغزل (ينظر) وفيات الأعيان ج2 ص101

« أعياك رسم الدار لم يتكلّم حتّى تكلّم كالأصمّ الأعجمِ »[27]

والكلام عن الدّيار والأطلال، ووصف الشعراء لها، ومساءلتها كلام يطول إلى الحدّ الذي يجعلنا نخرج عن صلب الموضوع، والذي يهمّنا هو أنّ شوق الشعراء إلى أوطانهم، وأهلهم هو الذي جعلهم يعبّرون عنها بهذه الصّورة، وبهذا الوقوف على الآثار والبكاء عليها حتّى صارت عادة لا تُبدأ القصائد إلّا بها كما سبق

والذي يظهر من خلال النظر إلى القصائد الكثيرة، والشائعة نجد أنّ هذا البكاء على الأطلال كان بكاء حقيقيا، ومن أمثلة ذلك ما ذكره " امرؤ القيس" *في شعره، فيقول إنّه بكى حتّى ابتلّت ثيابه بسبب شوقه:

« كأنّي غداةَ البين يوم تحمّلوا لدى سَمُرات الحيّ ناقف حنظلِ *
وقوفاً بها صحبي عليّ مطيّهم يقولون لا تهلك أسى وتجمّل
ففاضت دموعُ العين مني صبابة على النحر حتّى بلّ دمعي محملي »[28]

ولنا أنْ نسأل ما الفائدة من هذا البكاء؟ يجيبنا " عزّة حسن " بقوله: « وكان هذا البكاء يشفي هموم الشعراء، ويطفئ غلة صدورهم ويمسح عن نفوسهم آلام الذكرى، ويغسل عنها الحرمان، ويريحهم من حرقة الوجد »[29]

ب: الرحلة والسفر:

الرحلة أيضا من دواعي الحنين إلى الوطن، لأنّ المسافر يغترب عن وطنه، وأهله، ممّا يجعله يشتاق إليهم، والرحلة غالبا ما تكون لطلب العلم، أو لطلب الرّزق، أو قد يكونان معاً، وقد تكون لأغراض أخرى

وقد عرف العرب قديما الرحلات، والترحال كثيراً، من مكان إلى آخر، خاصّة البدو منهم، فلم يستقرّ بهم مكان واحد أبداً فهم من سفر إلى سفر، وهذا التنقّل يثير مشاعر الشوق والحنين في نفوس الشعراء « وإذا ما بعد الشاعر عن دياره لرحلة، أو غزوة، فسرعان ما يُشرك الشاعر ناقته في هذا الشوق، والحنين، والتذمّر من الغربة، فهذا امرؤ القيس حين توجّه إلى بلاد الروم كان يحن إلى الأهل والوطن، وكلّما وصل مدينة، أو جاوزها يتقطّع كبده حسرة على فراقها »[30]

يقول امرؤ القيس وهو في طريقه إلى بلاد الروم:

« سَمَا لك شوقٌ بعدَ ما كان أقصرا وحلّتْ سُليمى بطنَ قَوٍّ فعَرعَرا»[31]

والشاهد في هذا البيت هو أنّ الرحلة تُحرّك مشاعر الشوق، والحسرة عند الابتعاد عن الوطن، والأهل، والأحبّة، فهذا الشاعر لما توجّه إلى بلاد الروم تاركا بلاد العرب، حزن واشتاق وهو في طريقه إلى تلك البلاد الغريبة عنه، وعن أصله العربي

---

[27] عنترة: ديوانه ص 89 ت ودراسة مُحَمَّد سعيد مولوي المكتب الإسلامي مصر
*عنترة= شاعر جاهلي، من بني عبس، وكان فارساً، وهو من أصحاب المعلّقات(الأغاني) 8ص 168
[28] امرؤ القيس: ديوانه ص 111و112 ضبطه مصطفى عبد الشافي دار الكتب العلمية بيروت
* ناقف الحنظل = الذي يستخرج حبّه / الحنظل = له حرارة تدمع منها العين/ السمرة = شجرة الصمغ العربي
*امرؤ القيس= شاعر جاهلي، وأحد أشهر شعراء العرب على الإطلاق، كان أبوه ملكا وسعى للثأر له، وله معلّقة (ينظر) الأغاني ج9ص59
[29] عزة حسن: شعر الوقوف على الأطلال ص64 دمشق /1968
[30] الحنين والغربة ص31
[31] امرؤ القيس: ص56 و62

أمّا الرحلة لطلب العلم، فيمكن أنْ نُمثّل لها، برحلة أبي العلاء المعرّي* الذي ارتحل عن بلدته " معرّة النعمان " في الشام إلى " بغداد - حاضرة العلم في ذلك الوقت - سنة (398 ه)، وأقام بها سنة وسبعة أشهر، ثمّ رجع إلى بلده، فأقام به إلى أن مات[32] وقد لقي أبو العلاء في رحلته إلى بغداد وفيها سوء معاملة شديدة لأنّه كان أعمى، فقد قصد أبا الحسن علي بن عيسى الربعيّ، ليقرأ عليه فلما دخل عليه، قال ليصعد الإصْطبل، فخرج مُغضباً، ولم يعد إليه، والإصطبل في لغة أهل الشام الأعمى، ولعلّها معرّبة[33]

ودخل على " المرتضى أبي القاسم، فعَثَر برَجُلٍ، فقال: من هذا الكلبُ، فقال المعرّي: الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسما، وسمعه المرتضى، فاستدناه، واختبره فوجده عالماً [34]

وكان أبو العلاء يتعصّب للمتنبي، ويُفضله على بشّار، وأبي نواس، وأبي تمّام، وكان المرتضى يُبغض المتنبي، ويتعصّب عليه، فجرى يوما بحضرته ذكر المتنبي، فتنقّصهُ المرتضى، وجعل يتتبّع عيوبه، فقال المعري: لو لم يكن للمتنبي من الشعر إلّا قوله:
لك يا منازلُ في القلوب منازلُ
لكفاه فضلا، فغضب المرتضى، وأمر فسُحِبَ برجله، وأُخرج من مجلسه، وبعد هذه الرحلة عاد إلى المعرّة ولزم بيته[35]

والذي يهمنا من رحلته هذه التي ذهب فيها إلى بغداد لطلب العلم هو ما قاله فيها من شعر عبّر فيه عن شوقه إلى وطنه، وأمّه يقول:

« أسَارَني عَنْكُمُ أمْرَان والدةٌ   لمْ ألْقَهَا وثراءٌ عَادَ مَسْفُوتاً
أحياهُما الله عصر البين ثم قَضَى   قَبْلَ الإيَابِ إلى الذُّخْرين أنْ مُوتا
لَوْلا رجاءُ لِقَائِها لما تَبِعَتْ   عَنْسي دليلا كَسِرِّ الغِمْدِ إصْليتا
ولا صَحِبْتُ ذِئابَ الإنْس طاوية   تُراقب الجديَ في الخضراء مسبوتا »[36]

يتحدث أبو العلاء في هذه الأبيات عن سبب رحيله عن بغداد، وهو شوقه إلى والدته في الشام، وماله الذي نفد قبل أن انتهاء رحلته

ويقول في قصيدته اللامية معبّراً عن شوقه، وحنينه إلى بلده " معرّة النعمان "

« طَرِبْنَ لِضَوْءِ البارِق المتعالي   ببغدادَ وهْناً ما لهُنّ وما لي
سَمَتْ نحْوهُ الأبصَارُ حتّى كأنّها   بنَاريْه من هنّا وثَمّ وحَوالي
إذا طال عنها سَرّها لَوْ رؤوسها   تَمُدُّ إليه في رؤوس عوالي »[37]

---

[32] يُنظر: معجم الأدباء ج3 ص 108

* المعري= اللغوي الشاعر كان متضلّعا من فنون الأدب، قرأ النحو واللغة على أبيه في المعرّة، له التصانيف والرسائل المشهورة، وله من المنظوم لزوم ما لا يلزم وسَقْطُ الزّنْدِ، سمّى نفسه رهين المحبسين لذهاب عينيه ولزومه بيته (ينظر) وفيات الأعيان ج1 ص114

[33] ينظر: المصدر السابق ياقوت ص223

[34] ينظر: نفسه ص123

[35] ينظر: نفسه ص 124

[36] المعري: شروح سِقط الزند ج 4 ص 1594و1596 ت مصطفى السقا ورفاقه إشراف : طه حسين الهيئة المصرية العامة للكتاب ط1945/3

[37] نفسه ج3 ص1162و 1165

استحضر أبو العلاء في هذه الأبيات الإبل، وهي بمثابة المعادل الموضوعي* له، ولنفسيته، فهو مشتاق إلى وطنه، والإبل كذلك فهي تُصدر صوتاً يسمّى " الحنين " فكانت تذكّره بوطنه، ولهذا وظّفها في شعره، وإنْ كان – على ما يظهر من خلال شعره – قد أحبّ بغداد أيضا وعبّر عن حبّه، وشوقه، أثناء مغادرته لها من خلال هذه الأبيات:

« أودِّعكم يا أهلَ بغدادَ والحشا … على زفراتٍ ما ينينَ من اللّذع
فبئْسَ البديلُ الشأْمُ منكمْ وأهلهُ … على أنّهُمْ قومي وبينهمْ ربعي
ألا زوّدوني شربةً ولو أنّني … قدرتُ إذاً أفنيتُ دِجْلة بالجَرْع
وأنّى لنا من ماء دجلة نَغْبةٌ … على الخِمْسِ من بُعْدِ المفاوزِ والربع »[38]

فكان وداعه لبغداد –كما يظهر من الأبيات – بالدموع، والحزن عليها فقد أحبّها، ولم يرغب في مفارقتها، لولا شوقه أيضا إلى بلده الأم في الشام "معرّة النعمان "

ج: النفي والأسر:

النفي والأسر أيضا من الأسباب المهمّة التي تجعل الشاعر يحنُّ إلى وطنه، ويشتاق إلى أهله، وأحبّائه، وهي أسباب لا تكون للشاعر يدٌ فيها؛ أي أنّها خارجة عن إرادته أي فُرضت عليه، وهو كاره لها كأن يُنفى أو يهرب، أو يُؤسر

ومن أمثلة الشعراء المنفيين عن أوطانهم نجد " عمر بن أبي ربيعة "* الذي نُفي عن وطنه إلى " اليمن " وكان وطنه " المدينة المنوّرة" ويقول شوقاً إلى وطنه:

« بالله قولي له في غير معتبة ماذا … أردت بطول المكث في اليمن
إنْ كُنْتَ حَاولْتَ دُنْيا أو ظفرت بها … فما أخذْتَ بِتَرْكِ الحَجّ من ثَمنِ
فَلو شهِدْنَ غَداةَ البَيْنِ عَبْرَتنا … لأنْ تَغَرّدَ قُمْرِيٌّ على فَنَن »[39]

فعمر يذكر في هذه الأبيات منفاه إلى اليمن، ويُظهر حزنه، وشوقه إلى بلده ووطنه المدينة، ويقول في السياق ذاته في مطلع قصيدة أخرى:

« قَدْ هَاجَ قَلْبَكَ بَعْدَ السّلْوَةِ الوطنُ … والشّوقُ يُحْدِثُهُ للنّازِح الشّجَنُ
مَنْ كان يَسْألُ عَنّا أيْنَ مَنْزِلُنا … فالأَقْحوانةُ منّا منزلٌ قَمِنُ »[40]

---

[38] المصدر السابق شروح سقط الزند ج 3 ص 1349و1351

*المعادل الموضوعي= مصطلح حديث في النقد عُرف مع توماس إليوت، كون الجزء الأساسي من آرائه النقدية، وانتهى فيما بعد إلى اعتماده معياراً للشعر، وجوهر المصطلح يشير إلى أنّ الطريقة الوحيدة للتعبير عن الانفعال في صورة فنيّة هي العثور على معادل موضوعي، أي العثور على أشياء تُوضع فيها تلك العاطفة (ينظر) فوزية زوباري: المعادل الموضوعي في مدائح أبي تمام مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق المجلد87 ج2 ص478

[39] عمر بن أبي ربيعة: ديوانه ص 374و 375 قدّم له فايز مُحَمَّد دار الكتاب العربي ط1996/2

*عمر بن أبي ربيعة= القرشي المخزومي الشاعر المشهور، لم يكن في قريش أشعر منه، وهو كثير الغزل والنوادر والوقائع والمجون والخلاعة، وله في ذلك حكايات مشهورة، وكانت ولادته في الليلة التي قُتِل فيها عمر بن الخطّاب رضي الله عنه (ينظر) وفيات الأعيان ج3ص468

[40] المصدر السابق عمر بن أبي ربيعة ديوانه ص 372

يقول هنا أنّ تذكره لوطنه قد أثار أحزانه، وأشواقه، فالمكان الجدير بالإقامة حسبه هو " الأقْحوانة " التي تقع قرب مكة، وهي منازل قومه، وأهله الذين نُفي عنهم، ولكن يُطرح هنا سؤال، وهو لماذا نُفي عمر بن أبي ربيعة؟ وما الجريمة التي ارتكبها حتى يستحق هذا العقاب؟ حسبما ذكرته كتب الأدب، والتراجم، ومنها " الأغاني " أنّ عمر بن أبي ربيعة كان شاعر غزل، وكان غزله ماجناً بذيئا، وكان يتعرّض للنساء في مواسم الحجّ، وبسبب تصرفه هذا نُفي إلى اليمن، وقيل أنّ أخاه هو الذي أعطاه مالاً، وذهب به إلى اليمن، ولكن لم يلبث أن عاد إلى مكة بعد شوقه إليها، والجدير بالذكر أنّ بعض الروايات تقول إنه تاب في آخر حياته عمّا كان يقول ويفعل[41]

ومن أمثلة شعر الأسر نجد الشاعر العبّاسي " أبا فراس الحمداني "*، وهو ابن عمّ ناصر الدولة، وسيف الدولة ابني حمدان، وأمّه رومية، وكان شاعراً وفارساً، وكان مجلس سيف الدولة مكتظا بمشاهير الشعراء، وعلى رأسهم هو، والمتنبي، والنامي، والببّغاء، والوأواء وابن نباتة، وكشاجم، والصنوبري، وأبو علي اللغوي، وأبو علي الفارسي، والأصفهاني وغيرهم، وكان أبو فراس يذاكر الشعراء، وينافس الأدباء، وقيل إنّه كان يُظهر سرقات المتنبي الشعرية [42]

وفي يوم من أيام صيده باغته الروم في ألف رجل، فوقع أسيراً، وقيل أنّه أسر مرتين المرة الأولى في " خرشنة " والمرة الثانية في "القسطنطينية"، وطال أسره عند الروم، وفي هذا الأسر قال عدّة قصائد يحنّ فيها إلى أهله، ووطنه وهذه القصائد تُعرف بالروميات « وأمّا رومياته فهي القصائد التي نظمها وهو أسير في بلاد الروم، وقد ضمّنها خلجات نفسه وحزنه على ما كان له من حرية، وفخره بماضيه في سبيل سيف الدولة وقومه، وحنينه إلى أمّه العجوز، وعتبه على سيف الدولة الذي ماطل افتدائه »[43]

ومن جميل ما قاله في الأسر، وكان قد كتب بهذه القصيدة إلى والدته، ومنها:

« مُصابي جليلٌ والعزاءُ جَميلُ وظنّي بأنّ الله سَوْفَ يُديلُ
جراحٌ وأسْرٌ واشتياقٌ وغُرْبةٌ أُحمّلُ إنّي بَعْدَها لَحمُوْل
جراحٌ تَحامَلهَا الأُسَاةُ مَخُوْفَةٌ وسُقْمَان بادٍ منهما ودخيلُ
وأسرٌ أقاسيه وليل نجومه أرى كلّ شيء غيرهنّ يزول »[44]

يُصوّر أبو فراس ما يعانيه من آلام، وجراح بسبب الأسر، وما فيه من مذلة ومعاناة خاصّة إذا كان الأسير من بيت الأمراء، فإنّه يعاني أكثر، والروم سيعاملونه معاملة قاسية جدا، فهو يعاني معاناة نفسية، وجسدية حسب أبياته

الأقْحوانة = اسم موضع قرب مكّة / منزل قمن = منزل جدير بالإقامة
[41] ينظر: الأصفهاني: الأغاني (أخبار عمر بن أبي ربيعة)ج1 ص 62
[42] ينظر: أبو فراس الحمداني : ديوانه ص 8و9 شرح خليل الدويهي دار الكتاب العربي ط1994/2
*أبو فراس= ابن عم سيف الدولة، كان فرد دهره، وشمس عصره أدباً وفضلاً وشرفاً، وكرماً ونبلا، ومجداً وبلاغة، وبراعة، وفروسية وشجاعة، وشعره مشور، وكان الصاحب يقول: بُدئ الشعر بملك وخُتم بملك يعني امرأ القيس وأبا فراس؛ وكان المتنبي يشهد له بالتقدم والتبريز(ينظر) الثعالبي يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ج 1 ص 57 ت محمّد مفيد قميحة دار الكتب العلميّة بيروت ط1983/1
[43] ينظر: أبو فراس ديونه ص13
[44] نفسه: 252

ويقول في قصيدة أخرى:

« تطولُ بي الساعات وهي قصيرةٌ وفي كلّ دهرٍ لا يسرّك طُولُ
وإنّ وراء السّتْرِ أُمّاً بكاؤها عليّ وإن طال الزمانُ طويلُ
فيا أمّتا لا تعدمي الصّبْر إنّه إلى الخير والنُّجْع القريب رسولُ
و يا أمّتا صبْراً فكلّ مُلمّةٍ تَجلّى على عِلّاتها وتزول » [45]

وهي قصيدة طويلة يُخاطب فيها أمّه بالدرجة الأولى، وهي صادقة المشاعر، لأنّك تحسّ بصدق عاطفة الشاعر وأنت تقرأها، وهي من عيون شعره

ومن قصائده التي تفيض بمشاعر الشوق، والحنين إلى الوطن، والأهل رائيته الشهيرة ومنها الأبيات التالية:

« أرَاكَ عَصيّ الدّمْع، شِيمَتُكَ الصّبْرُ أمّا للهَوى نَهْيٌ عليك ولا أمْرُ
بلى، أنا مُشْتاقٌ، وعندي لوعةٌ ولكنّ مثلي لا يُذاع لهُ سِرُّ
إذا اللّيلُ أضواني بسَطْتُ يدَ الهوى وأذْلَلْتُ دمْعاً من خلائِقِهِ الكِبْرُ
تكاد تُضيءُ النارُ بين جوانحي إذا هي أذكتها الصبابةُ والفِكْرُ
مُعَلّلتي بالوصْلِ، والموتُ دونهُ إذا مِتُّ ظمآناً فلا نزلَ القطْرُ » [46]

أبو فراس يشتكي مرارة الأسر، ويصف حاله الحزين حيث أنّ النار تشتعل في صدره من شدة شوقه حتّى أنّه أراد البكاء فلم يستطع وتتكرر في هذه القصيدة الألفاظ الدلة على الحزن مثل: الدمع، الهوى، مشتاق، لوعة، الصبابة

[45] المصدر السابق أبو فراس: ديوانه ص253
[46] نفسه: ص 162

المبحث: 4: الحنين إلى الوطن عند الكتّاب:

لم يكن المقّري التلمساني هو أول من أفرد في كتبه حديثا عن الوطن بل نجد الكثير من الكتّاب الذين سبقوه من أفردوا فصولا في كتبهم للحديث عن الحنين إلى الوطن، بل إنّ منهم من جعل مؤلفاً خاصّاً لهذا الموضوع

يذكر " يحي الجبوري " في كتابه القيّم مجموعة من الكتّاب الذين تحدّثوا عن موضوع الوطن، والحنين إليه، وأكثر هؤلاء كانوا من أهل القرن الرابع الهجري سواء من علماء اللغة، والأدب، والحديث:

1: حبّ الوطن لأبي عثمان الجاحظ (ت 255ه)

2: رسالة الحنين إلى الأوطان للجاحظ

3: الشوق إلى الأوطان لأبي حاتم السجستاني (ت255ه)

4: حبّ الأوطان لأبي الفضل أحمد بن أبي طاهر

5: الحنين لموسى بن عيسى الكسروي (ت ق3ه)

6: الحنين إلى الأوطان لمحمّد بن أحمد بن إسحاق الوشاء (ت 325ه)

7: حنين الإبل إلى الأوطان لربيعة البصري

8: الحنين إلى الأوطان لمحمّد بن سهل بن المرزبان البغدادي (ت حوالي 330ه)

9: كتاب الشوق والفراق لابن المرزبان

10: اللقاء والتسليم لأبي بكر الصولي (ت336ه)

11:الوداع والفراق لأبي حاتم مُحَمَّد بن حبان البستي (ت 354ه)

12:المناهل والأعطان والحنين إلى الأوطان للحسن بن عبد الرحمان بن خلاد الرامهرمزي (360ه)

13:أدب الغرباء لأبي الفرج علي بن الحسين الأصفهاني (ت 365ه)

14: التسليم والزيارة لأبي عبيد الله مُحَمَّد بن عمران المرزباني (384ه)

15:الحنين إلى الأوطان لأبي حيّان التّوحيدي (ت414ه)

16:النزوع إلى الأوطان لأبي سعيد عبد الكريم بن مُحَمَّد السمعاني (ت 562ه)[47]

ولنا أن نسأل لماذا أفردت كتب خاصّة تتحدّث عن الوطن؟ يجيبنا " إبراهيم الأبياري" أنّه الحبّ أي حبّ هذه الأوطان هي ما جعل الكتّاب يكتبون عنها « بهذا نستطيع أن نعلل تلك الظواهر التي اكتنفت هذا اللون من الحبّ- وأعني به حب الوطن- في الأدب العربي... وإذا هو شيء تختصّ به كتب، وتُستفتح به كتب، وتنفرد به أبواب من كتب، وابن عساكر مثلاً وهو يؤلّف عن دمشق تاريخه الكبير يُفرد جزءاً عن فضائلها، ثمّ يمضي يجمع من نشأ فيها، ومن دخل إليها، ومن وصل حبله بحبلها، وكذلك فعل الخطيب في تاريخه لبغداد، وفعل كثير غيرهما »[48]

نقول وكذلك فعل المقّري فإنّه لمّا أراد الحديث عن ابن الخطيب تحدّث طويلاً عن الأندلس، وصدّر كتابه بكلام طويل عبّر فيه عن شوقه إلى تلمسان بلده، وسيُفصّل الحديث في هذا لاحقاً

---

[47] ينظر: الحنين والغربة ص15و16

[48] ينظر: إبراهيم الأبياري ص15

يقول إبراهيم الأبياري « فهذا التأليف حول الأوطان هو عندي ثمرة من ثمار الحبّ الجاد الرزين، وأنّ تلك الكثرة من التأليف حول الأوطان تدلك على أصالة هذا الحبّ في النفوس، نعرف ذلك للعرب، ونعرفه لغير العرب، والمتصفّح للتاريخ العربي يرى في ذلك شيئاً كثيراً، فثمّة كتب خاصة لبلدان بعينها، وثمّة كتب تضم فصولاً حول بلدان، وثمّة كتب تحوي إشارات إلى بلدان » [49]

إذاً نستنتج من كلام إبراهيم الأبياري أنّ الدافع للتأليف عن الوطن هو الحب الصادق لهذا الوطن، وهو أصناف ثلاث، فصنف خاص بالبلدان، وصنف يُفرد فصولاً عن بلدان، وصنف يحتوي إشارات إلى بلدان، والحنين إلى الوطن عند المقري من هذا الصنف الأخير

[49] المرجع السابق: ص15

الفصل الثاني: الحنين إلى الوطن عند أحمد المقّري التلمساني (من خلال كتابيه نفح الطيب، وأزهار الرياض) 45/16

المبحث 1: ترجمة المقّري 22/16

المطلب أ: نسبه ومولده16

المطلب ب: ثقافته ومؤلّفاته 19/16

المطلب ج: العصر الذي عاش فيه 20/19

المطلب د: رحلاته ووفاته 22/20

المبحث2 : الحنين والشوق إلى الوطن في كتاب نفح الطيب 38/23

المطلب أ: التعريف بالكتاب 25/23

المطلب ب: التعريف بتلمسان للمقّري 27/26

المطلب ج: قصائد في مدح تلمسان 30/27

المطلب ب: الحنين إلى تلمسان في نفح الطيب 38/30

المبحث 3: الحنين في كتاب أزهار الرياض 45/39

المطلب أ: التعريف بالكتاب 39 /42

المطلب ب: الحنين إلى تلمسان فيه 45/42

المبحث 1: ترجمة المقري

المطلب أ: نسبه ومولده

قال المحبي في ترجمته للمقري « الشيخ أحمد بن مُحَمَّد بن أحمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي العيش بن مُحَمَّد أبو العبّاس المقّري التلمساني المولد، المالكي المذهب »[50]

هذا عن اسمه، ونسبه، ومكان ميلاده، أمّا تاريخ ولادته فيذكر " إحسان عبّاس" أنّه وُلد سنة (986ه) بمدينة تلمسان من قرية مَقّرة – بفتح الميم وتشديد القاف المفتوحة – [51] وقيل بفتح الميم وسكون القاف، والأولى هي الأشهر حسبما ذهب إليه المحبّي، و محيي الدين

وتؤكّد المصادر التي ترجمت للمقري أنّه قرشي النسب، وأنّه من عائلة ذات علم وشرف، فقد كان عمّه سعيد المقري، وكذلك جدّه من أبرز العلماء في ذلك العصر[52]

المطلب ب: ثقافته ومؤلّفاته:

يتحدث المحبّي عن ثقافة المقّري فيقول « حافظ المغرب، جاحظ البيان، ومن لم ير نظيره في جودة القريحة، وصفاء الذهن، وقوّة البديهة، وكان آية باهرة في علم الكلام، والتفسير، والحديث، ومعجزا باهرا في الأدب والمحاضرات »[53]

نفهم من كلام المحبي هذا في وصفه لثقافة، وعلم المقّري أنّ الرجل كان موسوعياً، فاجتمع فيه الأدب، والبيان، وجودة الحفظ، وقوّة البديهة، وعلم الكلام، والتفسير، والحديث، وقلّما تجتمع هذه العلوم كلّها في رجل واحد، ولكنّها اجتمعت فيه، ولكن هذا يثير سؤالا هاما وهو كيف ومن أين اكتسب المقّري هذه الثقافة؟

يجيبنا المحبي بقوله: « ولد بتلمسان، ونشأ بها، وحفظ القرآن، وقرأ، وحصل بها على عمه الشيخ الجليل العالم أبي عثمان سعيد بن أحمد المقري* مفتي تلمسان ستين سنة، ومن جملة ما قرأ عليه صحيح البخاري سبع مرات، وروى عنه الكتب الستة بسنده عن عبد الله التنسي...»[54]

إذا ثقافة المقري عند نشأته كانت قرآنية، وعلى يد عمّه سعيد المقري، الذي قرأ عليه صحيح البخاري، وروى كتب المساند في الحديث الشريف

---

[50] المحبي: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ج1 ص302 (د ط)
[51] ينظر: المقري نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ج1ص5 ت إحسان عبّاس دار صادر بيروت/1968
[52] ينظر: أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي ج2ص213 دار الغرب الإسلامي بيروت ط1998/1
[53] المحبي: ص302
[54] نفسه: ص303
*سعيد المقّري: عالم تلمسان في وقته، ومفتيها ستين سنة وخطيب مسجدها الأعظم خمسا وأربعين سنة، وعمّ صاحب نفح الطيب، ولد بتلمسان وبها نشأ وتعلم، أخذ العلم عن والده وعبد الله الونشريسي، وغيرهما، وأخذ عنه ابن أخيه، وابن مريم صاحب البستان، وابن القاضي صاحب درّة الحجال (ينظر) عادل نويهض معجم أعلام الجزائر ص311و312 مؤسسة نويهض للثقافة للتأليف والترجمة والنشر بيروت ط1980/2

كان المقّري حريصا على أن يقرأ، ويحفظ كلّ ما يستطيع حفظه من أمّهات كتب الدين، والحديث، كما كان نزّاعا إلى الأدب، والأخبار والأشعار، ولا يمكن أن تخصص له اتجاها معينا في الدراسة، والرواية، والقراءة، فقد كان يقرأ كلّ كتاب يقع له، بل كان يسعى إلى الكتب في أماكنها[55]

ولمّا فارق مدينة تلمسان إلى مدينة فاس، وكان في حدود الرابعة والعشرين من عمره مضى يطلب العلم على شيوخها إلى أن حلّ فيها الفقيه إبراهيم بن مُحَمَّد الآيسي أحد قواد السلطان أحمد المنصور الذهبي، فأعجب بالمقّري الشاب، واصطحبه معه إلى مراكش، وقدّمه إلى السلطان، وهناك التقى بابن القاضي، وبأحمد بابا التنبكتي صاحب نيل الابتهاج، وبغيرهما من علماء مراكش، وأدبائها، وكانت هذه الرحلة مادة كتابه " روضة الآس "[56]

يقول أبو القاسم سعد الله « بقي لنا أن نقول إنّ المقّري رغم أدبه، وشعره، وطموحه كان متدينا عن عقيدة، وليس مجاراة لأهل العصر فقد أخذه الانبهار عند رؤية الكعبة الشريفة، وألّف مجموعة من كتبه عند قبر الرسول صلّى الله عليه وسلّم، وحجّ حوالي خمس مرات، وكان حافظا للسند مجيدا في تدريس التفسير، وصحيح البخاري كما عرفنا، وألّف في التوحيد (إضاءة الدجنة في عقائد أهل السنة) »[57]

هذا رأي أبي القاسم سعد الله، وهو رأي سديد وصائب، وحكيم لأنّه قائم على علم، ودليل، وقد اتفق مع هذا الرأي أغلب من ترجموا للمقّري

ويقول أبو القاسم سعد الله إنّ النثر الفني قد تقدّم على يدي المقّري في وقت كادت لا تكتب الأقلام غير شروح الفقه، ومنامات التصوّف، وكان وراء المقّري تراث ضخم من أسرته، فجدّه مُحَمَّد المقري شيخ ابن خلدون، وكان من المؤلّفين الأدباء البارزين، وهو صاحب كتاب " بلوغ الآراب في لطائف العتاب " وعمه سعيد المقري رغم شهرته بالتأليف كان شاعرا، وأديبا رقيقا، ومدرّسا من الدرجة الأولى[58]

مؤلّفاته:

يقول مُحَمَّد محيي الدين عبد الحميد « صنّف المقّري كتباً كثيرة كلّها ممتع، وكلّها مفيد أعظم الفائدة، وتمتاز كتبه الأدبيّة بصفاء العبارة، ونقاء الدّيباجة، وإشراق المعنى، ووضوحه، وهو في ذلك كلّه يتأسى بلسان الدين بن الخطيب وزير الأندلس، وأديبها، وينسج على منواله»[59]

وهذا الكلام صحيح، ولا يؤكّده إلّا أن تأخذ كتب المقّري وتقرأها ليتبيّن لك صدق كلام محقق هذا الكتاب، ويرى مُحَمَّد طمّار أنّ المقّري متأثر بأدباء الأندلس « إنّ نثر أدباء الأندلس يمتاز بالصنعة من سجع وجناس، واستعارة وطباق وغيرها من ضروب البديع يسيرون فيه على أسلوب ابن العميد، والمقّري احتكّ بهؤلاء الأدباء واحتكاكه بهم له أثره في نثره، فقد التزم هو الآخر السّجع ونمّقه بالألفاظ والتشبيهات والاستعارات »[60]

---

[55] ينظر: مُحَمَّد عبد الغني حسن: المقّري صاحب نفح الطيب ص52 (د، ط)
[56] ينظر: المقري: نفح الطيب ج1ص5و6
[57] تاريخ الجزائر الثقافي ج 2ص222
[58] ينظر: نفسه ص223
[59] المقّري: نفح الطيب ج1ص5 ت محيي الدين عبد الحميد مطبعة السعادة مصر ط1/ 1949
[60] مُحَمَّد طمار: تاريخ الأدب الجزائري ص241 الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر

ويقول محيي الدين عبد الحميد إنّ كتب المقّري تشبه كتب لسان الدين بن الخطيب لكنّها تختلف عنها بظاهرة « هذه الظاهرة هي استطراداته الكثيرة، وخروجه عمّا يعقد له الباب إلى ما يشبهه أو يتصل منه؛ بسبب شأن الرجل الواسع العلم الكثير المحفوظ، إذ تزدحم المتشابهات على ذهنه، فتنساب على أثلاث قلمه لا يستطيع لها دفعاً، ولا يقوى على ردّ جامحها، وإنّه ليخيّل إليه أنّه قد قصّر كلّ التقصير حين يحبس قلمه، أو يقف دون بلوغ الغاية، وقد عدّه الأدباء لهذه الظاهرة جاحظ المغرب »[61]

إذا يمكن القول أنّ أسلوب المقّري في التأليف هو مزيج من أسلوب الجاحظ المعروف بالاستطرادات الكثيرة، وأسلوب لسان الدين بن الخطيب

وقبل سرد مؤلّفات المقّري لا بدّ لنا أن نعرف هذا الرجل أكثر، ونعرف طريقته من خلال ما قاله " حسين مؤنس" « هذا الرجل محدّث لبق، جمع فأوعى، وحافظ ضمّ صدره من الأخبار، والحكايات، والتواريخ، والأشعار ما لم يجمع مثله إلّا الأقلون من أهل الآداب، وقد وهب الله لأحمد بن مُحَمَّد المقّري قدرة نادرة على الحكاية، والرواية، والاسترسال حتّى ليصرف سامعه عن نفسه، وعن الموضوع الذي يطلب، وتنقضي الساعات بين شعر ونثر، وخبر وحكاية، وترجمة، وتاريخ منظومة في سلك رفيع يكاد يخفى، حتّى إذا انتبهت إلى نفسك لم تجد من الموضوع الذي طلبت إلّا أشتاتاً متفرّقة، ولمحات متباعدة، ولكنّك لا تأسى على ما ضاع من وقتك، فإنّ كلّ ما تسمعه منه لطيف طريف، ينفعك في مطالب شتى »[62]

هكذا وصف " حسين مؤنس" المقري، وهكذا وصف كتابته، وتأليفه، وحالة الباحث في كتبه، وبأنّه يضيع في متاهات المقّري الرائعة، والتي لا يضيع معها الوقت أبدا فكلّها نافع، وكلّها مفيد

وهذه أسماء كتبه:

1: روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس

2: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض

3: إضاءة الدجنة بعقائد أهل السنة

4: إتحاف المغرم المغرى في شرح السنوسية الصغرى

5: حاشية على أمّ البراهين للسنوسي (ذكرها المحبي واليواقيت)

6: عَرف النشق من أخبار دمشق (ذكره المحبي)

7: شرح مقدّمة ابن خلدون (ذكره حاجي خليفة)

8: قطف المهتصر في شرح المختصر، شرح على حاشية مختصر خليل (ذكره المحبي)

9: فتح المتعال في مدح النّعال

10: للمقري أراجيز كثيرة منها : أزهار الكمامة في شرف العمامة

11: الدُّر الثمين في أسماء الهادي الأمين (ذكره المحبي واليواقيت) [63]

---

[61] المقري: نفح الطيب ت محيي الدين ص5

[62] حسين مؤنس : المقّري أغرب سفير ص36 ضمن كتاب الأندلس صفحات مشرقة لنخبة من الكتّاب وزارة الإعلام مجلة العربي الكويت ط2004/1

[63] ينظر المقري نفح الطيب ت إحسان عباس ص 13

12: نيل المرام المغتبط لطالب المخمّس الخالي الوسط(رجز) مخطوطة

13: البلدة والنشأة (ذكره المحبي واليواقيت)

14: الغث والسمين (ذكره اليواقيت)

15: حسن الثنا في العفو عمّن جنى

16: الأصفياء (ذكره الشاهيني في رسالة بعث بها إلى المقري)

17: الشفاء في بديع الاكتفاء (ذكره الشاهيني في رسالته)

18: الشجرة السرية في حلّ مشكلات الشجرة النعمانية

19: النمط الأكمل في ذكر المستقبل

20: أرجوزة في الإمامة

21: نظم في الجدول

22: ذكر في النفح أنه كان ينوي تأليف كتاب في تلمسان يسميه " أنواء نيسان في أنباء تلمسان"

23: شرح على قصيدة سبحان من قسم الحظوظ

24: نسبت المصادر له كتاب الجمان من مختصر أخبار الزمان

25: رسالة " إتحاف أهل السيادة بحروف الزيادة "

26: نفح الطّيب من غُصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب[64]

المطلب ج: العصر الذي عاش فيه:

علمنا سابقاً أنّ المقّري وُلد في العقد الأخير من القرن العاشر الهجري، وفي العقد الثالث من هذا القرن استولى السلطان العثماني "سليم" على مصر، والشام، وقد اتسعت حملات العثمانيين في أواخر عهد سليم، وعهد ابنه " سليمان القانوني " فامتدت إلى شمال إفريقيا، ومنها استولى الأتراك على تلمسان، وكان هذا سبباً في توتر العلاقات بين السلطان العثماني، وسلطان المغرب، وحاول الأتراك مراراً الاستيلاء على "فاس" لكنّهم فشلوا [65]

وقد شهد المقّري في عهد المنصور السعدي (سلطان المغرب) أموراً كثيرة، ولعلّ أغرب ما شاهده هو ثورة ولده المسمّى المأمون عليه وخروجه على والده بفاس، وتصميمه على الاستعانة بالأتراك في تلمسان على والده السلطان، والاستيلاء على الملك بدلاً منه، وكان ذلك سنة(1010هـ)

وشهد المقّري أموراً كثيرة من الفتن، والمنازعات، والحروب الداخلية بينهم، طمعاً في الملك، وتنافساً عليه، وكان في مراكش جبهة، وفي فاس جبهة ، بينهما صراع مرير بين أبناء البيت الواحد، حتّى انتهى الأمر بسقوط دولة السعديين، وقيام دولة أخرى بالمغرب، وهذه الأحداث لم تدع لبلاد المغرب سبيلا إلى الهدوء، والاستقرار، والتقدّم [66]

---

[64] ينظر المصدر السابق ص 13و 14

[65] ينظر محمّد عبد الغني حسن ص 9 و10

[66] نفسه ص10و11

والذي نصل إليه هو أنّ المقّري عاش في عصر مضرب سياسياً بسبب الصراع على السلطة، وهذا من بين أكبر الأسباب التي جعلته يرتحل عن المغرب إلى المشرق، وهذا العصر أشبه ما يكون بنهاية العصر العبّاسي الذي اضطرب هكذا، فكان الصراع الدموي على الحكم بين أبناء العائلة الواحدة، تُغذّي هذا الصّراع أطراف أجنبيّة، ففي العصر العبّاسي كانت هذه الأطراف هي الفُرس وغيرهم من الأعاجم، وفي هذا العصر كانت الأطراف هي الأتراك، والمسيحيون، والسبب في تكرار هذه الأخطاء التاريخية هو عدم الاستفادة من التاريخ ودروسه

المطلب د: رحلاته ووفاته

الحديث عن رحلات المقّري هي أهم عنصر من عناصر دراسة حياته، وشخصيته العلميّة الفريدة، فإنّه كان كثير الترحال، والتنقّل من بلد إلى بلد يقول "مُحَمَّد عبد الغني حسن" « لعلّ أوّل عهد المقّري بالاغتراب عن موطنه، ومحل ميلاده تلمسان كان في سنة 1009هـ»[67]

ويحدّثنا عن ذلك قائلا في مقدِّمة كتابه نفح الطيب: « أحمد بن مُحَمَّد بن أحمد الشهير بالمقّري، المغربي المالكي الأشعري، التلمساني المولد، والنشأة، والقراءة، نزيل فاس الباهرة ثم مصر القاهرة، أصلح الله أحواله الباطنة، والظاهرة »[68]

والذي يظهر أنّه قصد " فاس " لطلب العلم يقول " حسين مؤنس " « دخل المقّري مدينة فاس شاباً يطلب العلم، فأحاط منه بالكثير في فترة وجيزة، ثمّ عاد إلى تلمسان لفترة قصيرة، ثم بارحها إلى فاس مرّة أخرى، وهناك نجده في سنة 1022هـ (1613م) إماما لجامع القرويين، ومفتيا فيه، وقد وصل المقّري إلى هذه المنزلة، وهو بعد في الثانية والعشرين من عمره، ممّا يدلنا على سعة علمه، ونضوج شخصيته، فإنّ غيره لم يكن يصل إلى هذه المرتبة إلاّ في السن العالية »[69]

إذاً رحلته إلى المغرب كانت لطلب العلم، ولكنّه كان عالماً أيضاً، فقد وصل إلى إمامة جامع القرويين الشهير، وهو في سن الشباب، وهذا يدل على أنّه كان نابغة منذ صغره

أمّا رحلته إلى المشرق فتبدأ في أواخر رمضان سنة 1027هـ، ويكثر التساؤل عن أسباب هذه الرحلة، فقد كان يتمتع بحظوة، ومنزلة، ويحظى بالخطابة، والفتوى، ويظفر بالقرب من السلطان زيدان، والإفادة من مكتبته الخاصّة فما الذي حمله على ذلك، والهجرة إلى الشرق ؟[70]

يجيبنا " عبد الغني حسن " وهو الذي طرح هذا السؤال بقوله: « قد تكون الفتن، والاضطرابات في المغرب بعد وفاة المنصور، ونزاع أولاده على الملك عاملاً فعّالاً في اتجاه المقّري نحو المشرق »[71]

وهذا هو أهمّ سبب جعله يرتحل عن المغرب، فقد كانت هذه الفترة تموج بالفتن، والصراع الداخلي، هذا إلى جانب طموحه، وشوقه لزيارة الديّار المقدّسة

---

[67] المرجع السابق: مُحَمَّد عبد الغني حسن ص26

[68] المقّري: نفح الطيب ت إحسان عبّاس ج1ص 13

[69] حسين مؤنس: المقّري ص39

[70] ينظر: عبد الغني حسن ص29

[71] نفسه ص29

ورحلته إلى الشرق كانت في « أواخر رمضان 1027هـ غادر مدينة فاس متوجها إلى المشرق، فوصل " تطوان " في ذي القعدة من ذلك العام، ومن هناك ركب السفينة التي عرّجت به على تونس، وسوسة حتّى وصل الإسكندرية، ومنها إلى القاهرة »[72]

مصر إذا هي أول دول الشرق التي زارها، ونزل بها، يتحدث " حسين مؤنس" عن هذه الرحلة فيقول « وبعد خمس سنوات في فاس طار ذكره خلالها، تاقت نفسه إلى الحج إلى بيت الله الحرام، فرحل إلى المشرق، ونزل مصر سنة 1027 هـ 1617م، ويبدو أنّ الحجّ لم يكن إلّا تعلة تعلل بها ليخرج من المغرب، فقد أخذ معه كتبه كلّها، نعم إنّه يقول إنه ترك كتبه هناك، وإنّه ألّف كتبه بعد ذلك من حفظه، ولكن الحقيقة، كما تدل على ذلك كتاباته أنّه أخذ معه من الكتب ذخيرة كبرى »[73]

وهذا يدل على أنّ له حافظة قويّة كما تؤكّد ذلك عدّة مصادر ترجمت له، ويواصل حسين مؤنس حديثه عن هذه الرحلة « ثم إنّه لمّا نزل مصر نزلها رجلاً ميسوراً على مال، بدليل أنّه لم يكد يستقر فيها حتّى تزوج من بيت السادة الوفائية، ولم يكن يستطيع مصاهرة هؤلاء السادة إلّا رجل أكثر من ميسور، وزواجه في مصر يدل أنّه كان قد عوّل على الاستقرار فيها، ومن مصر ذهب إلى الحجاز، وأدى فريضة الحج سنة 1028هـ/1618م، ثم عاد إلى القاهرة »[74]

والذي يُلاحظ هو أنّه رغم عمره القصير – عاش أربعين سنة – إلّا أنّه كان مليئاً بالأحداث، والأسفار، والعلم، وهذا ما يجعل منه شخصيّة فريدة

وبعد عودته الثانية إلى القاهرة من الحجّ « ويبدو أنّه لم يجد في القاهرة ما كان يطلب من المكانة، فإنّ له أبياتاً من الشعر تدل على أنّه لم يُوفّق إلى ما كان يتمنى:

تركت رسومَ عِزي في بلادي وصِرْتُ بمصرَ منسيّ الرسوم
ونفسي عفتها بالذلّ فيها وقلت لها: عن العلياء صومي
ولي عزمٌ كحدِّ السّيفِ ماض ولكنّ الليالي من خصومي »[75]

هذا عن رحلتيه إلى مصر والحجاز، بعد ذلك توجّه إلى بيت المقدس سنة 1029هـ/1619م، ولم يطل به المقام هناك، فعاد إلى القاهرة حيث أقام إلى سنة1037هـ/1627م دون أن يوفق في الأغلب إلى وظيفة كبرى من وظائف التدريس، فرحل إلى القدس ثانياً، ومن هناك ذهب إلى الحجاز حيث حجّ، وقرأ الحديث على صاحبه أزكى السلام، وقد أشرقت نفسه بحماس عظيم عندما انتقل إلى مكّة، فألقى دروسه هناك، واجتمع إليه الطلاب، وبدأ اسمه يعلو، وقد تكرّرت زيارته للأراضي المقدّسة بعد ذلك حتّى بلغت حجّاته سبعا[76]

أمّا رحلته إلى "دمشق" ولعلّها أحبُّ الرحلات إلى قلبه، وكانت في « منتصف شعبان 1037هـ عزم على التوجّه إلى دمشق، وهناك تلقاه المغاربة، وأنزلوه في مكان لا يليق به، فأرسل إليه الأديب أحمد بن شاهين مفتاح المدرسة الجقمقية، فلمّا شاهدها أعجبته وتحوّل إليها»[77]

---

[72] المقّري: نفح الطيب ت إحسان عبّاس ص8
[73] حسين مؤنس ص39و40
[74] نفسه 40
[75] ينظر المقري: نفح الطيب ت محيي الدين ص 01
[76] المرجع السابق حسين مؤنس ص41
[77] المقري: نفح الطيب ت إحسان عبّاس ص 10

وكان وجوده في دمشق حافلاً بالعلم حيث « جلس يقرأ صحيح البخاري في الجامع الأموي تحت قبّة النسر، وتزاحم الناس لسماعه، حتّى ضاق بهم المقام فانتقل بعد أيّام إلى صحن الجامع، وأخذ يُحاضر تجاه القبّة المعروفة بالباعونيّة، وتقاطر الناس عليه، وأقبل أكابر علماء دمشق يسمعون منه، واستمرّت دروسه بنجاح عظيم حتّى أصبح سامعوه ألوفاً ... وأُتي بكرسي الوعظ، فصعد عليه، وتكلّم بكلام في العقائد، والحديث لم يُسمع نظيره أبداً، ونزل عن الكرسي فازدحم الناس على تقبيل يده، وكان ذلك سنة 1037هـ، ولم يتفق لغيره من العلماء الواردين على دمشق ما اتفق له من الحظوة، وإقبال الناس »[78]

دمشق إذا كانت أفضل مكان استقرّ فيه فقد أحبّها، وأحبّ أهلها، ومدحهم في مقدّمة كتابه نفح الطيب، ويظهر أنّه كان ينوي الاستقرار فيها إلّا أنّ الموت قد سبقه دون تحقيق غايته بالعودة إلى دمشق

وفاته :

ذكر المحبّي في " خلاصة الأثر" وفاته في قوله: « ودخل مصر، واستقر بها مدّة يسيرة ثم طلّق زوجته الوفائية، وأراد العودة إلى دمشق للتوطن بها ففاجأه الحِمام قبل نيل المرام، وكانت وفاته في جمادى الآخرة سنة إحدى وأربعين وألف، ودُفن بمقبرة المجاورين »[79]

والدليل عل أنّ هذا هو تاريخ وفاته أنّ الأديب الشاعر الدمشقي " إبراهيم الأكرمي" الذي كان معاصراً للمقّري قد أرّخ وفاته بتاريخ شعري لطيف يقول:

قد خُتم الفضل به فأرّخوه خاتم

ومجموع حروف كلمة " خاتم " بحساب الجمل هو 1041

فإنّ الخاء= 600

والألف= 1

التاء= 400

والميم= 40

والمجموع= 1041[80]

والمقّري رغم حنينه، وشوقه إلى المغرب، ورغبته في العودة إليه إلّا أنّ الله سبحانه لم يشأ له أن يعود إلى وطنه، ولعلّه كان بعد عودته من زيارة دمشق سنة (1037هـ) على نية العودة إلى وطنه، ولكنّ الأخبار كانت دائما توافيه من أصدقائه بسوء الأحوال، واضطراب الأمور، وانتقاض الأمراء السعديين بعضهم على بعض، طمعا في السلطان، ممّا جرّ إلى فتن يشيب لهولها الولدان، فما الذي يحمله على الرجوع إلى وطن مملوء بالفتن، مشحونا بالهزات، والاضطرابات منذ اللحظة التي غادره فيها إلى المشرق؟ [81]

والجدير بالذكر هو أنّ هناك روايات أخرى في وفاته، وأنه مات مسموما بالشام، ولكن هذه الروايات ضعيفة، ولا تقوم على شيء بل الرواية الموثوقة، والنزيهة هي رواية المحبي، فقد عاش هذا الرجل في عصر قريب من عصر المقّري، وعاش في دمشق، وبالتالي روايته هي الأقوى، وهذا ما رجّحه " عبد الغني حسن " في دراسته حول المقّري

---

[78] ينظر حسين مؤنس ص 41

[79] المحبّي: خلاصة الأثر ج1 ص311

[80] عبد الغني حسن ص189

[81] ينظر: نفسه ص 184

المبحث 2: الحنين والشوق إلى الوطن في نفح الطيب:

المطلب أ: التعريف بكتاب نفح الطيب

واسمه الكامل " نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب "، وأشهر من حققه هو " محيي الدين عبد الحميد "، و " إحسان عبّاس "

كان هذا الكتاب ثمرة زيارة المقّري إلى دمشق، فقد حدّث تلامذته فيها عن لسان الدين، ومكانته السياسية والأدبية، فأثار في نفوسهم حبّ الاستطلاع إلى مزيد من البيان عنه، وكان" أحمد الشاهيني" المدرّس بالجمقمقية أشدهم إلحاحا في ذلك، ولهذا نزل المقّري عند رغبته، ووعده بالشروع في المطلب عند الوصول إلى القاهرة، وبعد أن قطع في العمل شوطا بدا له أنّ هناك صعوبات لا يستطيع التغلّب عليها، فتردّد إلّا أنّ إلحاح الشاهيني عليه جعله يواصل، وكان في البداية يريد تسميته " عرف الطيب في التعريف بالوزير ابن الخطيب" فلمّا رأى أنّ المادة التي اجتمعت لديه قد استفاضت بحيث شملت تاريخ الأندلس، وأدبها غيّر اسم الكتاب وجعله نفح الطيب[82]

وهو كتاب موسوعي الذي يجعل منه مغنيا عن عشرات الكتب لصعوبة الرجوع إلى تلك الكتب في نطاق، وهو أقدم كتاب أندلسي ظهر للنور، وعرفته المطبعة العربيّة، وكان مصدرا لأكثر ما عرفه المشارقة عن الأندلس في مدى مائة عام أو أكثر[83]

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: لماذا يعتبر كتاب نفح الطيب أهمّ وثيقة تاريخيّة، وأدبية عن تاريخ الأندلس؟ وعلى أي شيء احتوى ؟

الكتاب كما سبق الذكر موضوعه الرئيسي هو " لسان الدين بن الخطيب " الوزير الأندلسي، ولكنّ المقّري « رأى أنّ يُمهّد لكتابه بمقدّمة عن الأندلس، ومن حسن الحظ أنّه رسم خطّة هذه المقدّمة على أنْ تكون كتابا كاملا عن ذلك الفردوس المفقود، ويبدو أنّه كان يحسب أنّ أحدا لن يكتب في هذا الموضوع بعده، فحرص على أن يكون الكتاب شاملا لكلّ شيء، وساعده على ذلك محفوظه الواسع والكتب الكثيرة التي أتى بها معه »[84]

والذي يجعل من كتاب نفح الطيب أهمّ وثيقة تاريخيّة عن الأندلس هو أنّ المقّري لمّا أراد الحديث عن لسان الدين، وهو محور حديثه الأصلي، مهّد لهذا بحديث طويل عن الأندلس، وتاريخها ذكر فيه كلّ المدن الأندلسيّة، ومن عاش فيها، ومن وفد إليها من العلماء، والشعراء، وذكر الكثير من الحكايات، والأخبار التي يندر إيجادها، استغرق هذا الحديث من الكتاب الأجزاء الأربعة الأولى كلّها، وفي الجزء الخامس بدأ الحديث عن لسان الدين بن الخطيب

---

[82] ينظر: نفح الطيب ت إحسان عبّاس ص16

[83] ينظر نفسه ص18و19

[84] حسين مؤنس ص45

ويمكن أن نستعين بحسين مؤنس وكتابته القيّمة عن المقّري وكتبه، في وصف هذا الكتاب يقول: « وقد رسم المقري كتابه على نحو فريد لم يسبقه إليه مؤلّف غيره، وأعانه على ذلك أنّ الأندلس بلد استتم تاريخه، قطرٌ عربيٌّ وُلد والدولة الإسلاميّة في شبابها ثم غالته المقادير والدولة كلّها في انحدار، أي أن تاريخه له بداية، ونهاية، ممّا يجعل هذا التاريخ أشبه بالقصّة التامّة الفصول، أو كأنّه مأساة إغريقيّة طويلة يهبط عليها الستار والنظارة في مقاعدهم يبكون »[85]

إذاً الذي ساعد المقّري على تكامل عمله في التاريخ للأندلس، هو أنّها كانت أشبه بالقصّة لها بداية، ونهاية ممّا سهّل الحديث عنها بالتفصيل، أي منذ دخول الإسلام إليها سنة 92هـ إلى زوال الدولة الإسلاميّة فيها بعد سقوط غرناطة سنة 897هـ

أمّا عن أقسام الكتاب فقسمه إلى قسمين الأول في الأندلس وفيه ثمانيّة أبواب، الأول في صفة الأندلس وجغرافيتها، والثاني في فتحها وأمرائها من قبل بني أمية، والثالث في ذكر أمرائها وخلفائها من بني أمية ومن أعقبهم من ملوك الطوائف، والرابع عن قرطبة، والخامس فيمن رحل من الأندلسيين إلى المشرق، والسادس فيمن وفد على الأندلس من المشارقة، والسابع في نبذة ممن منّ الله به على أهل الأندلس من توقّد الأذهان والثامن في تغلّب العدو الكافر على الجزيرة، والقسم الثاني في التعريف بلسان الدين وفيه ثمانية أبواب [86]

وهذه الأبواب يتخلّلها الكثير من الاستطراد، والحكايات، والأشعار، فهو يخرج من الموضوع الأصلي إلى مواضيع أخرى فرعية، وهذا أسلوبه في الكتابة يقول حسين مؤنس « وكلّ باب من هذه الأبواب إنّما هو كتاب كبير يحشد المقري فيه كل ما حضره في الموضوع ويورد فقرات طوالا من الكتب، حتّى أنه في الفصل الأول يورد بضع رسائل كاملة مثل رسالتي ابن حزم والشقندي في فضل الأندلس ويتبع الأولى منها برسالة ثالثة لابن سعيد في المعنى نفسه، والبابان الثاني والثالث إذا أُضيف إليهما الأخير اجتمع لنا تاريخ كامل للأندلس، أمّا فصل قرطبة فلا يقتصر على وصفها، بل يشمل مقارنات مع بلاد الأندلس الأخرى، ويقص عشرات الحكايات من نوادر أهلها، وأشعار شعرائها، ويتمم ذلك الموضوع ما يحكيه في الفصل السابع، أمّا فصلا التراجم فهما من أمتع فصوله، وأحفلها بالفائدة والمعنى»[87]

هذه الجوانب هي ما يجعل من نفح الطيب أحد أهمّ الكتب التي تمّ تأليفها في تاريخ الأندلس، ولا غنى لأي باحث في الأندلس وتاريخها و آدابها، وحضارتها عن هذا الكتاب، وعن حضارة الأندلس يقول الرافعي « وقد وجد العرب في الأندلس حضارة ممهّدة وسبيلا مطروقة إلى الفنون الدقيقة والجمال الطبيعي، وجاءهم بعد ذلك من بني أمية أمراء الحضارة المشرقية ومنافسو العباسيين فيها، فجلوا شبابا كاد يوفي على الهرم ؛ وعلى رأسهم في ذلك عبد الرحمن الداخل الذي بدأ في بناء جامع قرطبة الأعظم، والقصر الكبير الذي كان في الأبنية كأنّه قصيدة شعر، إذ كان من القصور التي يحتويها: الكامل، والمجدد، والحائر، والروضة، والبديع، وغيرها»[88]

يقول حسين مؤنس متحدثا عن طريقة عرض المقّري لكتابه « وهذه في رأي الباحثين أحسن خطة وضعها مؤلّف عربي في الكتابة عن بلد من بلاد العروبة، فقد سمحت له بعرض كلّ شيء يستحق العرض، فإذا أضفنا إلى ذلك استطراداته التي أشرنا إليها، وخروجه من موضوع لموضوع تبيّنا القيمة الكبرى لهذا الجزء (يقصد جزء التراجم) من نفح الطيب للمقري ككنز للمعلومات عن الأندلس في كل ميدان»[89]

---

[85] المرجع السابق حسين مؤنس ص 45

[86] ينظر نفسه ص45 وينظر المقري: نفح الطيب ج1 ص 116

[87] نفسه ص 45 و46

[88] الرافعي تاريخ آداب العرب ج3 ص 194 و 195 دار الأصالة الجزائر ط2010/1

[89] المرجع السابق حسين مؤنس ص 46

والذي ساعد المقري على جمع أكبر قدر من المعلومات عن الأندلس، وتضمينها كتابه هذا هو كثرة الاستطرادات، الأمر نفسه فعله لمّا وصل إلى سيرة ابن الخطيب فقد بدأ « المقري يقصّ سيرة ابن الخطيب، وهي في الواقع ليست سيرته وحده، بل سير أساتذته، ومعاصريه، وتاريخ كامل لغرناطة، والمغرب من أوائل أيّام بني نصر(بني الأحمر) إلى سقوط غرناطة»[90]

هذا عن عناصر الكتاب، ومحتواه بشكل موجز، أمّا إذا رجعنا إلى عنوان الكتاب والذي تظهر فيه الصنعة اللفظيّة، وانتقاء العبارات والألفاظ، ويعلّق عليه حسين مؤنس بقوله « وعنوان هذا الكتاب بعد ذلك متكلّف بعض الشيء " نفحُ الطّيب من غُصْنِ الأنْدلسِ الرّطيبِ، وذِكْرِ وزيرِها لسانِ الدّين بن الخطيبِ" سجعات العنوان تنبئ عن كتاب ثقيل، ولكنّها روح العصر حفّزت المقّري على هذا التكلّف، لأنّ الكتاب بعد ذلك سهلٌ لطيف، فيما عدا المقدمة، فقد تبالغ فيها المقري فأثقلها بعض الشيء»[91]

ومن الحسن أنْ نقتبس شيئاً من كلام المقّري في وصف الأندلس، فقد قال نقلا عن أبي عبيدة البكري « الأندلس شاميّة في طيبها وهوائها، يمانيّة في اعتدالها، واستوائها، هندية في عطرها وذكائها، أهوازيّة في عِظمِ جِبَايتها، صينيّة في جواهر معادنها، عدنيّة في منافع سواحلها، فيها آثار عظيمة لليونانيين أهل الحكمة، وحاملي الفلسفة، وكان من ملوكهم الذين أثّروا الآثار هرقلس، وله الأثر في الصنم بجزيرة قادس، وصنم جليقية، والأثر الضخم في مدينة طرّكونة الذي لا نظير له »[92]

جمال طبيعة الأندلس ساعد على قيام حضارة فيها « وأساس الحضارة الأدبية في الأندلس تلك الطبيعة التي كانت ترسل النسمات أنفاساً موسيقية تُؤخذ شعراً وتُلفظ ألحاناً، وبذلك حبّب إلى أهلها الأدب وطبعوا على هذه الشيمة...وممّا خُصّتْ به غرناطة التي تسمّى دمشق الأندلس، نبوغ النساء الشواعر منها، كتزهون القلعية، وحفصة الركونية، وغيرهما، وناهيك بهما من شاعرتين ظرفاً وأدباً، فإذا كانت أنوثة تلك الطبيعة قد أنطقت النساء فكيف بالرجال؟»[93]

وكأنّ الأندلس اجتمعت فيها فضائل كلّ هذه البلدان، ولهذا يقول أيضا « محاسن الأندلس لا تُستوفى بعبارة، ومجاري فَضْلها لا يشق غُباره، وأنّى تُجارى وهي الحائزة قَصَبَ السّبق في أقطار الغرب والشرق »[94]

حديثه عن الأندلس إنّما هو في سبيل التمهيد لحديثه عن الوزير الأديب لسان الدين بن الخطيب الذي قال عنه « هو الوزير الشهير الكبير، لسان الدين الطائر الصّيت في المغرب، والمشرق المزري عَرفُ الثناء عليه بالعنبر، والعبير، المثلُ المضروب في الكتابة، والشعر، والطبّ، ومعرفة العلوم على اختلافها، ومصنّفاته تُخبر عن ذلك، ولا ينبئك مثل خبير، عَلَمُ الرؤساء الأعلام، الوزير الشهير الذي خدمته السيوف والأقلام، وغَنيَ بمشهور ذكره عن مسطور التعريف، والإعلام، واعترف له بالفضل أصحابُ العقول الراجحة والأحلام»[95]

هذا من باب الاستطراد في سبيل بيان محتوى هذا الكتاب الموسوعي الضخم الذي احتوى على كثير من أخبار الأندلس، والتي لا يتسع المجال للتوسع فيها

---

[90] المرجع السابق حسين مؤنس ص46

[91] نفسه ص 46 و 47

[92] المقري: نفح الطيب ت محيي الدين عبد الحميد ج1 ص124

[93] الرافعي ج3ص195

[94] المصدر السابق نفح الطيب ت محيي الدين ص 132

[95] المقري: نفح الطيب ت إحسان عباس ج5 ص7

المطلب ب: التعريف بتلمسان للمقّري

تلمسان هي بلد المقّري، وهي المكان الذي اشتاق إليه بعد رحلته إلى المشرق، وفي عرض كتابه " نفح الطيب" قدّم تعريفا لها قال فيه « وتلمسان هذه هي مدينتنا التي عُلّقت بها التمائم، وقد نزلها من سلفنا عبد الرحمن بن أبي بكر المقّري بن علي صاحب الشيخ أبي مدين الذي دعا لهُ ولذريته بما ظهر قبوله، وتبيّن، وهو الأب الخامس كما سبق في ترجمة أخبارهم، وهي من أحسن مدائن المغرب ماء وهواء حسبما قال ابن مرزوق: يكفيك منها ماؤها وهواؤها »[96]

يتحدّث المقري هنا عن أصله، ونشأته في تلمسان، وتلحظ في كلامه مدى حبّه واشتياقه لها بعد غربته عنها فقد ألّف هذا الكتاب في مصر

يذكر المقّري أنّ أصل كلمة تلمسان بربري، وهي مركبة من (تلم) و (سن) ومعناه اثنان: أي الصحراء والتل[97]

ويصفها بقوله « وهي مدينة عريقة التمدن، لذيذة الهواء، عذبة الماء، كريمة المنبت، اقتعدت بسفح جبل...فهي التي سحرت الألباب رُواء وأصبت النُّهى جمالا، ووجد المادحون فيها المقال فأطالوا، وأطابوا، إلى أن قال: فأنا أُنشد ساكنها قول ابن خفاجة لاستحقاقها إيّاه عندي

ما جنّةُ الخلد إلّا في منازلكم وهذه كنتُ لو خُيّرتُ أختارُ

لا تَتّقُوا بعدها أن تدخلوا سقراً فليس تُدْخَلُ بعد الجنّة النارُ

وتوسطت قطرا ذا كُوَر عديدة تعمرها أمشاج البربر والعرب، مريعة الجنبات، منجبة للحيوان والنبات، كريمة الفلاحة، زاكية الإصابة »[98]

هذا وصف تلمسان للمقري أخذه من مصادر عديدة كابن خلدون، ومن شيخه أبي عبد الله الآبلي حسبما ذكر، فهي حسب هذا الوصف جميلة الطبيعة والهواء حيث تشبه الأندلس في هوائها وجمالها، لهذا استعار المقّري بيتي ابن خفاجة في وصف الأندلس ليصف بهما بلده

ثمّ بعد هذا يعطينا وصفا للسان الدين بن الخطيب « تلمسان مدينة جمعت بين الصحراء والريف، ووضعت في موضع شريف، كأنّها ملك على رأسه تاجه، وحواليه من الدوحات حَشَمه...وهواها المقصور بها فريد، وهواؤها الممدود صحيح عتيد، وماؤها بُرود صريد، حجبتها أيدي القدرة عن الجنوب فلا نحول فيها ولا شحوب، خِزانةُ زرع، ومسرح ضَرْع، فواكهها عديدة الأنواع، ومتاجرها فريدة الانتفاع، وبرانسها رقاق رفاع، إلّا أنّها بسبب حبّ الملوك، مطمعة للملوك...»[99]

بعد وصف لسان الدين هذا يقول المقّري إنّه كان ينوي تأليف كتاب في تلمسان « وقد كنت بالمغرب نويت أن أجمع في شأنها كتابا ممتعا أسميه ب(أنواء نيسان في أنباء تلمسان) وكتبت بعضه ثمّ حالت بيني وبين ذلك العزم الأقدار، وارتحلت منها إلى حضرة فاس حيث ملك الأشراف ممتدُّ الرواق، فشُغلت بأمور الإمامة، والفتوى، والخطابة، وغيرها، ثمّ ارتحلت بنية الحجاز، وجعلت إلى الحقيقة المجاز، وها أنا ذا إلى الآن في البلاد المصرية، وفي علم الله تعالى ما لا نعلم...»[100]

---

[96] المصدر السابق نفح الطيب ت إحسان عباس ج 7 ص133

[97] ينظر: نفسه 133

[98] ينظر: نفسه ج7 ص134 و 135

[99] ينظر: نفسه ص135

[100] ينظر: نفسه135

إذاً هذا الكتاب لم يتمّ تأليفه، والسبب في ذلك هو انشغال المقري بالأسفار، والفتوى، والإمامة، هذه الأمور حالت دون تأليفه، ولكن يكشف هذا الكتاب مدى تعلّق المقري ببلده تلمسان إلى درجة تأليف كتاب خاصّ بها

ثمّ يقول « وبها ولدت أنا وأبي وجدي، وجدّ جدّي، وقرأت بها ونشأت إلى أن ارتحلت في زمن الشبيبة إلى مدينة فاس سنة تسع وألف، ثمّ رجعت إليها آخر عام عشرة وألف...»[101]

يؤكّد هنا دائما على أصله التلمساني، ونشأته بها، ويذكر رحلاته منها إلى المغرب، والمشرق الذي توفي فيه

بعد هذا ترجم المقّري لأحد أعلام تلمسان، وأحد الأولياء الصّالحين الشيخ أبي مدين حيث قال فيه: « وقد تخرّج بتلمسان من العلماء الصلحاء ما لا ينضبط، ويكفيها افتخارا دَفْنُ وليّ الله سيدي أبي مدين بها، وهو شعيب بن الحسين الأندلسي، شيخ المشايخ، وسيّد العارفين، وقدوة السالكين...قال أبو الصبر كبير وقته: كان أبو مدين زاهداً فاضلاً عارفاً بالله تعالى، خاض بحار الأحوال، ونال أسرار المعارف، خصوصا مقام التوكل، لا يُشَق غباره، ولا تُجهل آثاره...»[102]

ثمّ ذكر الكثير من أخبار هذا الولي الصالح المتصوف الزاهد، وذكر كذلك عددا من كراماته، ومنها على سبيل المثال أنّه كان ماشيا على ساحل البحر، فأسره العدو، وجعلوه في سفينة مع جماعة من المسلمين، فلمّا استقرّ في السفينة توقفت عن السير، ولم تتحرّك من مكانها، مع قوّة الريح ومساعدتها، وأيقن الروم أنّهم لا يقدرون على السير فقال بعضهم: أنزلوا هذا المسلم فإنّه قسيس، ولعلّه من أصحاب السرائر عند الله تعالى، وأشاروا له بالنزول، فقال: لا أفعل إلّا إذا أطلقتم جميع من في السفينة من الأسارى، فعلموا أنّ لابدّ لهم من ذلك، فأنزلوهم كلّهم وسارت السفينة في الحال[103]

بعد ذكره لكرامات أبي مدين، ذكر مجموعة من أقواله ومنها: « ومن كلامه: من رُزق حلاوة المناجاة زال عنه النوم، ومن اشتغل بطلب الدنيا ابتُلي فيها بالذل، ومن لم يجد من قلبه زاجراً فهو خراب، وقوله: بفساد العامّة تظهر ولاة الجور، وبفساد الخاصّة تظهر دجاجلة الدين الفتّاتون »[104]

ويقول المقّري أنّه ذكر ترجمة أبي مدين للتبرّك به « وإنّما ذكرت ترجمة سيدي الشيخ أبي مدين للتبرك به، ولكونه شيخ جدي، فأنا في بركته لقول جدّي: إنّه دعا له ولذريته بما ظهر قبوله، ولأنا ذكرنا في هذا التأليف كثيرا من أبناء الدنيا، فأردنا كفّارة ذلك بذكر الصالحين، والله الموفّق بمنّه وكرمه آمين»[105]، هذا فيما يتعلق بالتعريف بتلمسان، ومن باب التعريف بها تتم الإشارة إلى أعلامها، لأن البلاد بعلمائها تفتخر، كيف لا وهم العلماء الصالحين الأولياء كالشيخ أبي مدين رحمه الله

المطلب ج: قصائد في مدح تلمسان:

ولأنّ المقّري يحب تلمسان كثيراً أورد في كتابه " نفح الطيب" عدداً من القصائد في مدحها نذكر بعضها، حيث قال محمّد بن يوسف الثغري* كاتب سلطان تلمسان أبي حمّو موسى الزياني يمدحه، ويذكر تلمسان:

---

[101] ينظر: المصدر السابق نفح الطيب ج7 ص136

[102] ينظر: نفسه ص136

[103] ينظر: نفسه ص140و141

[104] نفسه: ص143

[105] نفسه: ص144

« أيُّها الحافظون عهدَ الودادِ جدّدوا أنسنا بباب الجيادِ
وصِلُوها أصائلا بليالٍ كلآلٍ نُظمْنَ في الأجياد
رقّ فيها النسيبُ مثلَ نسيبي وصفا النهرُ مثلَ صفو ودادي
كلُّ حسن على تلمسانَ وَقْفٌ وخصوصاً على ربى العبّاد
ضحكَ التورُ في ربا وأربى كهف ضحّاكها على كلّ ناد »[106]

مدائح تلمسان دائماً تجتمع على جمال طبيعتها، وجمال نباتها، ومائها، وهوائها، فكلّ الذين مدحوها، مدحوها بذلك، وابن يوسف هنا يمدحها بذلك أيضا وهي قصيدة طويلة مدح فيها تلمسان وسلطانها

ومن القصائد الجميلة أيضا التي أوردها المقّري في مدح تلمسان قصيدة أخرى للثغري:

« تاهت تلمسانُ بحسن شبابها وبدا طرازُ الحسنِ في جلبابها
فالبِشر يبدو من حبابِ ثغورها متبسماً أو من ثغور حبابها
قد قابلتْ زهرَ النجوم بزَهرها وبروجَها ببروجها وقبابها
حسنت بحسن مليكها المولى أبي حمو الذي يحمي حمى أربابها
ملكٌ شمائله كزهر رياضها ونداه فاضَ بها كفيض عُبابها
غارتْ بغرة وجهه شمسُ الضّحى وتنقّبت خجلاً بثوبِ ضبابها »[107]

والذي يظهر من خلال القصيدتين هو جمال تلمسان؛ أي جمال طبيعتها، واعتدال هوائها، فهي من أحسن المدن طبيعة، وهواء لهذا يتكرّر في أكثر من قصيدة مدحها بذلك

وللثغري قصيدة ثالثة مطوّلة رائعة في مدح تلمسان، وقد أجاد فيها كلّ الإجادة، وهذا مطلعها:

« قُم مبصراً زمنَ الربيع المقبلِ تَر ما يسرُّ المجتني والمجتلي
وانشق نسيمَ الروضِ مطلولاً وما أهداك من عَرْفٍ وعُرْفٍ فاقبل
وانظر إلى زهر الرياضِ كأنّه دُرّ على لبّات ربّاتِ الحلي
في دولة فاضتْ يداها بالندى وقضتْ بكلّ مُنى لكلّ مؤمّل
بسطتْ بأرجاءِ البسيطة عدلها وسطتْ بكلّ معانٍ لم يعدل »[108]

وجمال الطبيعة في الحقيقة يُلهم الشعراء لقول الشعر، وهذا ما حدث مع الثغري، فقد انبهر بجمال طبيعة تلمسان، فقال هذه القصيدة الفريدة، والتي قال فيها أيضا:

---

[106] ينظر: المصدر السابق نفح الطيب ج7 ص121و122 باب الجياد= اسم باب بتلمسان
*ابن يوسف الثغري= التلمساني أبو عبد الله شاعر أديب، كاتب من أهل تلمسان ومن أشهر شعرائها وبلغائها المقدمين لدى سلاطينها، وصفه المازوني بالإمام العلّامة الأديب الأريب الكاتب، ووصفه المقري بالناظم الناثر (ينظر) عادل نويهض ص92
[107] المصدر السابق ص125
[108] نفسه ص126

« راقتْ محاسنها ورقّ نسيمها فخلا بها شعري وطاب تغزُّلي
عرّج بمنعرجات باب جيادها وافتحْ بها بابَ الرجاء المُقْفَل
ولتغدُ للعبّاد منها غدوةً تصبحْ همومُ النفس عنك بمعزل
وضريحُ تاج العارفين شُعَيْبها زُرْهُ هناكَ فحبّذا ذاك الولي
فمزاره للدين والدُّنيا معاً تُمحى ذنوبك أو كروبك تنجلي »[109]

يذكر هنا أنّ في تلمسان ضريح الشيخ أبي مدين – الذي سبق ذكره – وأنّ زيارة قبره لها منافع للدين والدنيا، هذا إلى جانب وصف تلمسان بالجمال والحسن وهذا لا يخفى

ويقول الثغري أيضا أنّ امرأ القيس لو رأى تلمسان لنسي معاهد مأسل، وتلك الديار التي كان يبكيها ويقف عندها مطولا يقول الثغري:

« فلو امرؤ القَيْس بن حجر راءها قدماً تسلّى عن معاهد مَأسَل
أو حامَ حَوْلَ غنائها وظبائها ما كان محتفلاً بحومة حَومل
فاذكر لها كلفي بسقط لوائها فَهواي عنها الدّهْرَ ليس بمنسل
كم جَاد لي فيها الزمانُ بمطلب جَادته أخلاف الغَمام المسبل »[110]

ومنها أيضا:

« فإذا دنت شمسُ الأصيل لغربها فإلى تلمسانَ الأصيلة فادخل
من بابِ مَلعبها لباب حديدها متنزهاً في كلّ نادٍ أحفل
وتأنّ من بعد الدخولِ هنيهةً واعدلْ إلى قصرِ الإمام الأعدل
فهو المؤمّلُ والديار كنايةٌ والسرُّ في السكان لا في المنزل
فإذا أميرُ المؤمنين رأيتهُ فالثمْ ثرى ذاك البساطِ وقبّل
فالمجدُ لفظٌ في الحقيقة مجملٌ وحُلاه تفصيلٌ لذاك المجمل »[111]

تكشف هذه القصائد الطويلة التي أوردها المقري في مدح تلمسان عن مدى حبّه لها، ففي عرض كتابه نفح الطيب قدّم تعريفا لتلمسان ــ كما سبق ــ ثم أورد هذه القصائد، وكان قد ألّف هذا الكتاب وهو في مصر في رحلته المشرقيّة تلك، ويظهر أنّ الغربة أثارت أشواقه لهذا ضمّن كتابه هذه القصائد التي هي من أجمل ما قيل في مدح البلدان

ثمّ بعد ذلك يُورد أبياتا في مدح تلمسان منسوبة للسان الدين بن الخطيب، وهو الأديب و الشاعر الأندلسي الذي ألّف المقّري من أجله نفح الطيب كتابه الموسوعي الضخم، وكان شديد الإعجاب به وبأسلوبه، يقول لسان الدين:

---

[109] المصدر السابق نفح الطيب ج7ص126
[110] نفسه ص126و127
[111] نفسه ص127

« حيّا تلمسانَ الحيا فربوعُها صَدفٌ يجودُ بدرّهِ المكنونِ
ما شئتَ من فضل عميم إنْ سقى أرْوَى ومن ليس بالممنون
أو شئتَ من دين إذا قدح الهدى أورى ودنيا لم تكن بالدون
ورد النسيمُ لها بنشر حديقةٍ قد أزهرتْ أفنانها بفنون
وإذا حبيبة أمّ يحيى أنجبتْ فلها الشفوفُ على عيون العين »[112]

ويعني بحبيبة أمّ يحيى عَيْنَ ماء بتلمسان من أعذب المياه، وأخفها، وكانت جارية بالقصور السلطانية، لم تزل إلى الآن منها آثار ورسوم حسبما ذكره المقري[113]

ويختم مدائح تلمسان بقصيدة طويلة للإمام الصّوفي عبد الله مُحَمَّد بن خميس* منها الأبيات التالية:

« تلمسانُ جادتكِ السحابُ الروائحُ وأرْسَتْ بواديكِ الرياحُ اللواقحْ
وسحّ على ساحاتِ بابِ جيادها مُلِثٌّ يصافي تربَها ويصافحْ
يطير فؤادي كلّما لاحَ لامعٌ وينهلُّ دمعي كلّما ناح صادحُ
ففي كلّ شفر من جفوني مائحٌ وفي كلّ شطرٍ من فؤاديَ قادحُ
فما الماء إلّا ما تسحُّ مدامعي ولا النارُ إلا ما تجِنُّ الجوانحُ
كتمتُ هواها ثمّ برّحَ بي الأسى وكيفَ أطيقُ الكتمَ والدمعُ فاضحُ »[114]

عبّر ابن خميس في هذه القصيدة عن حبّه لتلمسان، وهي تعبّر بحق عن صدق مشاعر هذا الشاعر

المطلب د: الحنين إلى تلمسان في نفح الطيب.

في نفح الطيب، وقبل أنْ يبدأ المقّري حديثه عن موضوع كتابه، وهو الأندلس ووزيرها ابن الخطيب، وفي مقدّمة هذا الكتاب عبّر عن حنينه وشوقه لوطنه تلمسان قال: « إنّه لمّا قضى الملك الذي ليس لعبيده في أحكامه تعقُّب أو ردّ، ولا محيدَ عمّا شاءه سواه كَرِهَ ذلك المرء أو ردّ، برحلتي من بلادي، ونُقْلَتي عن محلّ طارفي وتلادي، بقُطْر المغرب الأقصى، الذي تمّت محاسنه لولا أنّ سَماسِرة الفتن سامت بضائع أمنه نقصاً، وطما به بحرُ الأهوال...»[115]

---

[112] المصدر السابق نفح الطيب ج7 ص129
[113] ينظر: نفسه ص129
[114] نفسه ج1 ص13
*ابن خميس= (645- 708ه) شاعر فحل، عالم بالعربيّة، ولد بتلمسان، وبها نشأ، وأخذ عن مشيختها، في أواخر 703ه دخل الأندلس وسكن غرناطة، وتصدّر للإقراء فذاع صيته، وترجم له لسان الدين وقال فيه : كان نسيجاً وحده زاهداً (ينظر) عادل نويهض ص135
[115] المصدر السابق ج1 ص13

أشار المقّري إلى رحلته، وهي التي بدأ يحس فيها بالغربة والشوق إلى وطنه تلمسان وإلى المغرب بشكل عام، ثمّ قال: « وذلك أواخر رمضان عام سبعة وعشرين بعد الألف، تاركا المنصب، والأهل، والوطن، والإلف:

بَلَدٌ طابَ لي به الأُنْسُ حيناً وصفا العَوْدُ فيه والإبداءُ
فَشَقتْ عهدَه العِهادُ ورَوّتْ منه تلكَ النوادي الأنداءُ »[116]

هنا يذكر أيضا تاريخ رحلته تاركا المنصب، والأهل والوطن، بسبب الفتن في المغرب، ثمّ يذكر بعد هذا مجموعة من الأبيات المتفرّقة يُعبّر بها عن مشاعره تجاه وطنه الذي يقول عنه: محل فتح الكمائم، ومسقط الرأس، وقطع التمائم:

به كان الشبابُ اللّدْنُ غضّاً ودهري كلّه زمنَ الربيع
ففرّق بيننا زمنٌ خؤونٌ لهُ شَغَفٌ بتفريق الجميع[117]

يشير هنا إلى فترة طفولته، وشبابه في تلمسان التي فرق بينه وبينها الزمن حسبما يقول

ويقول « لم أنس تلك التواسم، التي أيامها للعمر مَوَاسم، وثغورها بالسرور بواسم، فصرت أُشير إليها وقد زُمّت للرحيل القُلُص الرواسم

ولنا بهاتيك الديارُ مواسمٌ كانت تُقام لطيبها الأسواق
فأبانا عنها الزمانُ بسرعةٍ وغَدَتْ تُعلّلنا بها الأشواقُ »[118]

ولا يخفى كم في هذا الكلام، وكم في هذه الأبيات من أشواق، وحنين، وحزن للبعد عن الوطن، ثم قال « وأتمثّل في تلك الحدائق التي حمائمها سواجع، بقول من جفونه من الهوى غير هواجع:

تشدُو بعيدانِ الرياض حمائمٌ * شَدْو القِيان عَزَفْنَ بالأعوادِ
مادَ النسيمُ بقبضها فتمايلتْ مُهْتزّةَ الأعطاف والأجيادِ
هذي تودّع تلك توديعَ التي قد آذنتْ منها بوشْك بعادِ
واسْتَعْبرتْ لفراقها غَيْرُ الندى فابتلّ مئزرُ عِطفها الميّاد »[119]

المقّري يستحضر هذه الأبيات لشوقه تلمسان، وفي مقدّمته هذه استحضر عدّة مقطوعات شعرية في الشوق، والهوى ومنها على سبيل المثال:

« أرى آثارهُمْ فأذوبُ شوقاً وأسْكُبُ مِنْ تذكّرهم دموعي
وأسألُ من قَضَى بفراق حِبّي يَمُنُّ عليّ منهم بالرجوع »[120]

---

[116] المصدر السابق ج1ص 14
[117] ينظر: نفسه ص14
[118] نفسه ص14
[119] نفسه ص15
* الحمام: لقد نالت الطيور من الإنسان مودة واضحة، وإن لم يتورع أحياناً عن صيدها أو أكلها، وتغنّى الشعراء بحنينها ورقتها، والحمام ذوات الأطواق أكثر الطيور وروداً في الشعر، والشعراء يُدركون مظاهر عجيبة تفوتنا ولا نعرضها وندهش لأكداس من الشعر تتحدّث عنها من منا أنصت إلى حمامة تبكي أو ترنم؟ هل نقرأ القصائد حقّاً أم نمرّ بها مسرعين؟ (ينظر) محمّد سعد: الحمام في الشعر العربي ماله وما عليه {07/04/2008/01:09}
[120] المصدر السابق نفح الطيب ص15

ربّما يكون المقّري قد استحضر هذه الأبيات للتخفيف عن نفسه آلام الغربة، والأشواق إلى الوطن والأهل والأحبّة، وممّا قال أيضا: « غيرَ أنّ الرحيل عن الرّبع المُحيل، فُصِل به بين الشائق والمشوق، وحيل:

وَقَفْنا بِرِبْعِ الحِبِّ والحِبُّ راحل نحاولُ رُجْعَاه لنا ويُحاول
وألقتْ دموعُ العين فيه مَسائلاً لها عن عباراتِ الغَرام دلائلُ
وبالسّفْح منها كم سَقَيْتُ لِبانها فَميّلتُهُ والسّفحُ للبانِ مائلُ
إذا نسمةُ الأحبابِ منها تنسّمتْ تطيبُ بها أسْحارُنا والأصائلُ
تثير شجوني ساجعاتُ غصونها فمنها على الحالين هاجتْ بلابلُ
مرابعُ ألّافي مراتِع لذّتي مطالعُ أقماري بها والمنازلُ »[121]

المقّري هنا يتصوّر نفسه في هذه الأبيات، أو يتصوّر حاله كحال الواقف على هذا الربع حزين يبكي فرقة أحبابه وبعده عنهم ثم قال: « فحيّاها الله من منازلَ ذاتِ أقمارٍ سائرة فيها، ومنازِهَ لا يحصي الواصفُ محاسنها، وأمداحَ أهلها، ولا يستوفيها»[122]

المنازل التي يقصدها المقري هنا هي منازل أهله وأحبابه في تلمسان، وهي التي _ على حد قوله _ لا يحصي الواصف أمداحها ومحاسنها

ثمّ تمثّل أبيات الشاعر الأندلسي: ابن الزّقاق*:

« وقَفْتُ عَلى الربوع ولي حنينٌ لساكنهنّ ليْس إلى الربوع
ولو أنّي حَنَنْتُ إلى مغاني أحبّائي حننتُ إلى ضلوعي »[123]

سبب تمثّل المقّري بهذين البيتين هو شوقه تلمسان وحبّه إياها، ولهذا أيضا تمثل هذا البيت:

« دُخولُكَ من باب الهوى إنْ أردْتَهُ يسيرٌ ولكنّ الخروجَ عسيرُ »[124]

والذي يلاحظ هنا هو كثرة استحضار المقّري للشعر الذي فيه كلمات حنين وشوق، وهوى، فكلّ الأبيات التي أوردها في مقدّمته هذه لا تخرج عن هذا، ثم قال « ولم أزل بعد انفصالي عن الغرب بقصد الشرق، واتصافي في أثر ذلك الجمع بالفرق:

أحِنُّ إذا خلوتُ إلى زمانٍ تَقَضّى لي بأفنيةِ الربوع
وأذكر طيبَ أيّام تولّتْ لنا فتفيض من أسفٍ دموعي »[125]

---

[121] المصدر السابق نفح الطيب ج1 ص 16
[122] نفسه ص 16
[123] نفسه ج1 ص17
ابن الزقّاق شاعر أندلسي حسبما ذكر المقري (لم أعثر له على ترجمة)
[124] نفسه ص 17
[125] نفسه ص 17

الزمان الذي يحنُّ المقّري إليه إنّما هو زمانه وشبابه في تلمسان التي ترك بُعده عنها في قلبه أشواقا لا ينساها، بل إنّه يذرف الدموع من أجلها خاصّة إذا تذكّر جمال طبيعتها، وأرضها، ومائها؛ لهذا يُورد الأبيات التالية بعد أن قال: و أتوق وقد اتسع من البُعد الخَرْقُ، وخصوصا إذا شدا صادحٌ أو أوْمضَ برق، إلى ديار لا يعدوها اختيار:

وأربع أحبابٍ إذا ما ذكرتها بكيت وقد يُبكيك ما أنت ذاكر
بِطاحٌ وأدواحٌ يروقُك حُسْنُها بكلّ خليع نمنمته الأزاهرُ
فما هو إلّا فضّةٌ في زبرجدٍ تساقط فيه اللؤلؤ المتناثرُ
بحيثُ الصّبا والتُّربُ والماء والهوى عبيرٌ وكافورٌ وراحٌ وعاطرُ
وما جنّة الدنيا سوى ما وصفتُه وما ضمّ منه الحسن نجدٌ وحاجرُ
بلادي التي أهلي بها وأحبتي وقلبي وروحي والمنى والخواطر [126]

وقد استحضر المقّري الكثير من مثل هذا الشعر الذي فيه أشواق وحنين إلى الوطن، ويظهر أنّ هذه القصيدة من شعره و فيها وصف رائع لجمال تلمسان وتتمتها:

« تذكرني أنجادُها ووهَادها عهوداً مضت لي وهي خُضْرٌ نواضرُ
إذا العيش صافٍ والزمانُ مساعدٌ فلا العيش مملولٌ ولا الدهر جائرُ
بحيث ليالينا كغضِّ شبابنا وأيّامنا سلكٌ ونحن جواهرُ
ليالِيَ كانتْ للشبيبةِ دولةٌ بها مَلِكُ اللّذّاتِ ناهٍ وآمرُ
سلامٌ على تلك العهودِ فإنّها مواردُ أفراح تلتها مصادرُ » [127]

يتذكّر المقري في قصيدته هذه أيام شبابه تلك الأيام الجميلة في أرض تلمسان والمغرب العربي

وحنين المقّري إلى تلمسان التي اغترب عنها في بلاد المشرق العربي هو على هذا النحو؛ حيث أنّه أورد عدة قصائد، وعدّة أبيات متفرقة تُعبّر في مجملها عن الشوق والحنين، منها ما هو له، وأغلبها لغيره، ومن القصائد الجميلة التي أوردها هذه القصيدة التي منها الأبيات التالية:

« لم أنْسَ أياماً مضَتْ ولياليا سَلَفَتْ وعيشاً بالصّريم تصرّما
إذا نحنُ لا نخشى الرقيب ولم نخفْ صَرفَ الزّمانِ ولا نطيعُ اللُّوما
والعيشُ غَضٌّ والحواسدُ نُوّمٌ عنّا وعينُ البينِ قد كُحلتْ عمى
في روضة أبدتْ ثغورُ زهورها لمّا بكى فيها الغمامُ تبسُّما
مدّ الربيعُ على الخمائلِ نَوْرَهُ فيها فأصبحَ كالخيام مُخيما » [128]

---

[126] ينظر: المصدر السابق ج 1 ص 17
[127] نفسه ج 1ص18
[128] المصدر نفسه ص18

وهذه القصيدة للحائك الأمّي*، ويقول المقّري إنّه استحضرها عندما تذكّر أيّامه الماضية في بلاده تلمسان، وما فيها من جمال في الطبيعة والحياة، خاصّة جمال نباتها، وحدائقها الرائعة التي تسحر الألباب وتلهم الشعراء، ومن هذه القصيدة أيضا:

« تبدو الأقاحي مثلَ ثغر أشْنَبٍ أضحى المحبُّ به كئيباً مُغْرَما
وعيونُ نرْجِسِها كأعين غادةٍ ترنُو فترمي باللواحظ أسْهما
وكذلك المنثور منثورٌ بها لمّا رأى وَرْدَ الخدود مُنظّما
والطيرُ تَصْدَحُ في فروع فنونها سَحَراً فتوقظ بالهديل النُّوما »[129]

ثمّ بعد هذا يُورد عدّة أبيات من قصائد مختلفة، تُعبّر في مجملها عن الشوق، والحنين إلى الديار والأوطان، وهي بمثابة المعادل الموضوعي وربّما لأنّ المقّري يجد فيها ما يماثل حالته النفسية من شوق

ثمّ يورد هذين البيتين " للشاعر الأديب " الوداعي " *يفضّل فيها الغرب على الشرق :

« الغربُ خيرٌ وعند ساكنه أمانةٌ أوجبتْ تقدُّمَهُ
فالشرقُ من نَيّرَيْهِ عندهم يودِعُ دينارَهُ ودرهمهُ »[130]

نحن نعلم أنّ وطن المقّري هو تلمسان وهي في المغرب، وهو يعتبر المغرب كلّه وطنا له، لهذا هو مشتاق إليه، ولهذا تمثّل بقول هذا الشاعر، وردّد هذه الأبيات:

« أحبابَنا لو لقيتم في إقامتكم من الصّبابة* ما لاقَيْتُ في الظّعنِ
لأصبحَ البحرُ من أنفاسكم يبساً والبرُّ من أدمعي ينشقُّ بالسُّفنِ

وقوله:

وما تغيّرتُ عن ذاك الودادِ ولا حالتْ بي الحال في عهدي وميثاقي
دَرْسي غرامي بكم دهري أكرِرُهُ وقد تفقّهتُ في وجدي وأشواقي »[131]

وقد يسأل سائل لماذا أورد المقّري واستحضر هذا العدد الهائل من الأشعار في الشوق والصبابة والحنين إلى الأهل والأحبّة والديار؟ نقول إنّ هذه الأبيات والقصائد كانت بمثابة المتنفّس له، حيث كان يجد فيها ما يماثل حالته النفسية أي أنّ هناك من يماثله من الشعراء الذي سبقوه كأبي طاهر الخطيب الموصلي * الذي يقول:

---

[129] المصدر السابق ج 1ص18 الحائك الأمي (لم أعثر على ترجمته)

[130] المصدر نفسه ج 1ص20

*الوداعي= علاء الدين بن المظفّر الكندي المعروف بالوداعي الأديب البارع المقري المحدث الكاتب المنشئ وهو صاحب التذكرة الكندية في خمسين مجلداً بخطه، وكان شيعياً(ينظر) محسن الأمين أعيان الشيعة ج1ص184 ت حسن الأمين دار التعارف بيروت

[131] ينظر المصدر السابق نفح الطيب ص21 و 22

الصبابة= الشوق، وقيل رقته وحرارته، وقيل رقة الهوى (ينظر) ابن منظور مادة صبب ج1 ص518

*الخطيب الموصلي= ولد في بغداد وسافر مع أهله إلى الموصل، وسمع أبي البركات ابن خميس، تولّى الخطابة في حمص مدّة ثم عاد إلى الموصل، ولم يزل بها إلى أن مات، وكان من الشهود المعدّلين بها وفيه فضل، وله أدب، وكان يقول الشعر وينشئ الخطب (ينظر) الصفدي: الوافي بالوفيات ج7ص55 ت أحمد الأرنأووط وتركي مصطفى دار إحياء التراث العربي بيروت ط2000/1

« حَيِّ نجداً* عنّي ومَنْ حَلّ نجدَا أرْبُعاً هِجْنَ لي غراماً ووجْدا
واقْرِ عني السلامَ آرامَ ذاك ال شِّعب والأجْرَعَ الخصيب الفردا
وابْكِ عنّي حتّى تُرَنّحَ بالوج د أراكاً به وباناً ورنْدا
فلكم وقفةٍ أطلتُ على الضا لِ بدمعٍ أذاع سرّي وأبدى
وعلى البانِ كم من البينِ أذْريْ ثُ لآلي للدمع مثنى ووحدا
آه والهفتي على طيب عيشٍ كنتُ قطّعتُه وصالاً وودا »[132]

هذه الأبيات في الوقوف على أطلال نجد، وهي كذلك في البكاء عليها، وهي عادة معروفة عند العرب في قصائدهم _ كما سبق ذكره في الفصل الأول _ والمقّري يجد نفسه في مكان هذا الشاعر، ووطنه بدل نجد وطن الشاعر

ويورد المقّري قصائد أخرى في الحزن والبكاء ومنها أبيات الجرجاني* صاحب الوساطة:

« كَمْ محبّ يرى التجلُّدَ ديناً فهو يُخفي من الهوى ما يلاقي
ازدهاهُ النوى فأعربَ بالوج دِ لسانٌ عنْ دَمْعه المُهْراقِ
وانحدارُ الدموع في مَوْقفِ البي نِ على الخدِّ آيةُ العُشّاقِ
هَوِّنِ الخطبَ لستَ أوّل صَبٍّ فَضَحته الدموع يَوْمَ الفراقِ »[133]

أورد كذلك قول الخطيب الحصكفي الشافعي:

« ساروا وأكْبادنا جَرْحى وأعينا قَرْحى وأنفسُنا سَكْرَى من القَلَقِ
تشكو بواطنُنا من بعدهم حُرْقاً لكنْ ظواهرُنا تشكو من الغَرَقِ
إنْ غبتُم لم تغيبوا عن ضمائرنا وإن حضرتُمْ حملناكم على الحدق »[134]

يظهر من خلال انتقاء المقّري لمثل هذه الأبيات التي تعبر عن ألم الفراق والحزن النفسي العميق، أنّه كان شديد الغمّ والحزن على فراق وطنه

---

[132] المصدر السابق نفح الطيب ج1 ص22

* نجد= هذه الرقعة الواسعة التي تتوسط الجزيرة العربية، تغنّى بها الشعراء العرب الأوائل والمحدثون، وأكثروا حتّى لا تجد شاعراً لم يذكرها في شعره بل لقد ذهب الأمر ببعضهم إلى أن جعل نجداً أمّاً يبثّها آلامه وشجونه، الأمر الذي جعل شعرهم مليئاً بالحنين إليها (ينظر) مُحَمَّد سعد: نجد في الشعر العربي القديم والحديث { 08/04/2008/10:21}

[133] المصدر السابق نفح الطيب ج1ص23

*الجرجاني= عبد العزيز الفقيه الشافعي كان فقيهاً أديباً شاعراً، ذكره الثعالبي فقال: هو فرد الزمان، ونادرة الفلك، وقبّة تاج الأدب، له كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه، توفي سنة ست وستين وثلثمائة، وكان حسن السيرة صدوقاً رحمه الله (ينظر) وفيات الأعيان ج3 ص278و281

[134] المصدر السابق نفح الطيب ص24

*الخطيب الحصكفي: صاحب ديوان في الشعر، له خطب، ورسائل، قدم بغداد فاشتغل بالأدب وأتقنه ومهر فيه، قرأ الفقه على مذهب الشافعي رضي الله عنه، وأجاد فيه ثمّ رحل عن بغداد، و تولى الخطابة وأوكل إليه أمر الفتوى بها وذكره العماد الأصبهاني «كان علّامة الزمان في علمه، ومعرّي العصر في نثره ونظمه» (ينظر) وفيات الأعيان ج6ص205

ويقول المقّري إنّه حاول نسيان وطنه إلّا أنّه لم يستطع « وربّما رُمْتُ انتحائي مذهب السلوّ وانتحالي، خلال أحوال إقامتي وارتحالي، فلم ينتقل عن تلك الصفات حالي، وأنّى وجيدي بقلائد البتات حالي:

والشوقُ أعظمُ أن يحيطَ بوصْفه قَلَمٌ وأن يُطْوى عليه كتابُ
واللهِ ما أنا منصفٌ إن كان لي عَيْشٌ يطيبُ وجيرتي غُيّابُ »[135]

ويقول المقّري إنّه كلّما هبّ نسيمٌ تحرّكت أشواقه « وكيف ولآماقي صبّ، و لأتواقي زيادة إذا سرى نسيم أو هبّ:

شربتُ حُمَيّا البين صِرْفاً وطالما جلوت مُحيّا الوصلِ وَهْوَ وَسيمُ
فميعاد دمعي أن تنوحَ حمامةٌ وميقاتُ شوقي أنْ يهبّ نسيمُ »[136]

إذاً كلّ شيء يتحرّك في الطبيعة يحرّك أشواقه، كالنسيم، والرياح، والبرق، وكلّ ظواهر الطبيعة تذكّره بوطنه ولهذا قال: « فإن لاح سنا بارق شاقني، أو ترنم شادٍ حدا بي إلى الهيام وساقني، أو رَنا ظبي فلاة راعني وراقني:

وإنّي ليصُيبني سنا كلّ بارقٍ وكلُّ حمامٍ في الأراك ينوحُ
وأرتاعُ من ظبي الفلاةِ إذا رنا وأرتاحُ للتذكار وهو سنوحُ
ولم يكُ ذاك الأمرُ من حيثُ ذاتُه ولكنْ لمعنى في الحبيب يلوحُ »[137]

الطبيعة وحيواناتها وظواهرها تثير أشواقه، هذا أمر مثير للاستغراب والتعجب، ولذلك قال: « ولا أستطيع الإعراب عن أمري العجيب، لما بي من النوى المُذهل والجوى المدهش الوجيب:

ولا تسألوا عمّا أجِنُ فليس لي لسانٌ يؤدي ما الغرامُ يقولُ
يطارحني البرقُ الأحاديثَ كلّما أضاء كأنّ البرقَ منه رسولُ
وما بالُ خفّاقِ النسيم يميلني هل الريحُ راحٌ والشمالُ شَمُولُ »[138]

ودموع المقّري لم تكن تجف من شدة حزنه على فراق وطنه « إذ دموع شؤوني عند الذكرى لا ترقا، وجفوني ليس لها عن الأرق مرْقى وشجوني تنمو إذا صدحت بفننها وَرْقا »[139]

الحمامة الورقاء أيضا ممّا يثير شجونه، خاصّة عند سماعه لسجعها وترديدها له، لهذا أنشد فيها الأبيات:

« رُبّ وَرْقاءٍ في الدياجي تُنادي إلفها في غصونها الميّادهْ
فتثيرُ الهوى بلحنٍ عجيبٍ يشهدُ السمعُ أنّها عَوّادهْ
كلّما رجّعَتْ توجّعتُ حزناً فكأنّما في وجْدنا نتبادهْ »[140]

---

[135] المصدر السابق نفح الطيب ج1ص27
[136] نفسه ص27
[137] نفسه ص27
[138] المصدر نفسه ج1 ص27
[139] نفسه ص27
[140] المصدر نفسه ص27

والذي يلاحظ في مقدمة المقري هذه التي حنّ فيها إلى وطنه، بل وكلّ كتابته هو لغته الفنية الراقية التي تذكّر بلغة الجاحظ، ولعلّ هذا هو السبب هو الذي جعل" المحبّي" الذي ترجم له يُطلق عليه جاحظ البيان، أو جاحظ المغرب، فالمقّري يكتب بلغة فنية ذات أسلوب راق، يستعمل فيها أندر الألفاظ وأجملها، كما يلاحظ أيضا حسن انتقائه للأبيات الشعرية التي يختارها من أجود الشعر العربي، فالنثر الفني قبل مجيء المقّري كان قد أصابه نوع من الركود ــ كما أكّد ذلك أبو القاسم سعد الله في تاريخه ــ فلمّا ظهر المقّري أعاد له بريقه، وجودته، وعاد به إلى عصوره الزاهية فكتابته أشبه ما تكون بكتابة الجاحظ، ولا يخفى على أحد مدى جودة كتابة أمير البيان العربي

وقد أكثر المقّري من ذكر الحمام ومن الشعر الذي قيل فيه، وما يثيره بصوته الشجي في نفوس المشتاقين إلى أحبّائهم وأوطانهم وهو منهم، انتقل بعد هذا إلى شعر الأطلال، ووقوف الشعراء عليها يقول: « وفي شغل من أبكته الربوع والطلول، وذهبتْ بُرْهةٌ من زمانه بين الترحل، والحلول، فرَكِبَ من الأخطار الصّعْبَ والذّلول، وحافظ على العهود، ولم يسلك سبيل الغادر الملول:

سقاها الحَيَا من أربُعٍ وطُلول حكتْ دَنَفي من بعدهم ونحولي
ضمنْتُ لها أجفانَ عينٍ قريحةٍ من الدّمْعِ مِدْرَارِ الشؤون هموِلِ»[141]

بعد هذا ارتجل المقّري مجموعة من الأبيات منها:

قلتُ لمّا طال النّوى عن بلادي ولأهل النوى جوى وعَويلُ
هل أرى للفراق آخرَ عهدٍ إنّ عُمْرَ الفراق عمرٌ طويلُ

ثمّ قال:

لك اللهُ من صَبٍّ أضَرّ به النّوى وليس له غَيْرَ اللقاء طبيبُ
وإنّ صباحاً نلتقي بمسائِهِ صباحٌ إلى قلبي المَشُوقِ حبيبُ

ثمّ قال إنّه عاد إلى التصبُّر، بعد إمعان النظر والتدبُّر:

وإنّي لأدري أنّ في الصّبر راحةً ولكنّ إنفاقي على الصبر من عمري
فلا تُطْفِ نارَ الشوقِ بالشوق طالباً سُلوّاً فإنّ الجمر يُسْعَرُ بالجمرِ[142]

هذه الأبيات التي ارتجلها المقّري هي التي شخّصت حالته النفسيّة بدقة حيث حاول التصبّر والنسيان فلم يستطع، وكيف له أن ينسى وطنه؟

بعدما أورد مجموعة أخرى من الأبيات في الشوق والحنين إلى الوطن قال: « وأضرع إليه ــ سبحانه ــ في تيسير العَوْد إلى أوطاني، ومعهدي الذي مطايا العز أوطاني، وأن يُلحقني بذلك الأفق الذي خيره مَوْفُور، وحقُّ من فيه معروف لا منكر ولا مكفُور:

إذا ظَفِرْتُ من الدُّنيا بقربهم فكلُّ ذنب جناهُ الدهرُ مغفورُ »[143]

---

[141] المصدر السابق نفح الطيب ج1ص28
[142] ينظر: نفسه ج 1ص30
[143] المصدر نفسه ص 32

هذا كان رجاء المقّري، وهو تيسير العودة إلى وطنه، ذلك الرجاء الذي لم يتحقق، فقد توفي ــ كما سبق ــ في أرض مصر، وقال أيضا في نهاية حنينه « وكأنّي بعاتب يقول: ما هذا التطويل؟ فأقول له: جوابي قول ابن أبي الإصبع الذي عليه التعويل:

أَكثرْتَ عذلي كأنّي كنتُ أولَ من   بكى على مَسْكَنٍ أو حنّ للسّكَنِ
لا تَلْحَ إنّ من الإيمانِ عند ذوي ال   إيمان منّا حنينَ النفس للوطنِ »[144]

وهو معذور فعلاً، فالوطن للإنسان كالأمّ والأب، والإنسان ما هو إلاّ قطعة من وطنه، وحبّ الأوطان من الإيمان كما ورد في الحديث الشريف، والرسول صلّى الله عليه وسلّم حنّ واشتاق إلى مكّة كثيراً، وقال هي أحبّ البلاد إلي، وكم دمعت عيناه الشريفتان شوقاً إليها، وهو القدوة والمثل الأعلى

وختم المقّري حنينه في نفح الطيب بهذا الدعاء، وبه نختم هذا المطلب « اللهم يسّر لي ما فيه الخيرة لي بالمشارق، والمغارب، وجُد لي من فضلك حيث حللت بجميع ما فيه رضاك من المآرب، بجاه نبيّنا وشفيعنا المبعوث رحمة للأحمر، والأسود، والأعاجم و الأعارب، عليه أفضلُ صلاةٍ وأزكى سلام، وعلى آله، وأصحابه الأعلام والتابعين لهم بإحسان ماذرّ شارق وتعاقب طالع وغارب »[145]

والجدير بالذكر هو أنّ المقّري لم يكره المقام في المشرق، بل إنّه وجد أرفع المناصب العلمية ــ كما سبق ــ خاصّة دمشق التي أحبّها وأحبّ أهلها ومدحهم في كتابه " نفح الطيب " الذي ألّفه تلبية لهم، وإنّما بعده عن وطنه هو الذي ترك في قلبه حرقة وشوقا لا يزيلها إلّا أن يعود إليه، وذلك ما لم يتحقق

من خلال اطلاعك على كتب المقري تلاحظ كما يلاحظ مُحَمَّد طمّار أنّ له أسلوب شاعري فريد « وعند قراءة نثره ترى أنّه بارعٌ في اللغة العربية، وفنونها يأتي بأسلوب شعري، والأسلوب الشعري المنمّق صعب الانقياد لا يستكين إلّا لكاتب بليغ مستطيل على الألفاظ بارع في المجاز »[146]

المقّري أديب وكاتب من طراز رفيع، ضليع باللغة، متحكّم بفنونها يسير على منوال الأدباء الأندلسيين من أمثال لسان الدين بن الخطيب، والجاحظ في استطراده الكثير ــ كما سبق ــ

---

[144] المصدر السابق ج1 ص32
[145] المصدر نفسه ج 1ص32
[146] مُحَمَّد طمار: تاريخ الأدب الجزائري ص241

المبحث 2: الحنين في أزهار الرياض للمقّري.

المطلب أ: التعريف بالكتاب.

أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض هو ثاني أهمّ كتاب للمقّري بعد نفح الطيب، وبين الكتابين تشابه، فنفح الطيب في ترجمة علم أندلسي هو لسان الدين بن الخطيب، أمّا الكتاب الثاني فهو في ترجمة علم مغربي هو القاضي عياض وهو « علم من أعلام الفكر المغربي في القرن الخامس الهجري، والنصف الأول من القرن السادس، وهو أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي (ت544ه)، وعياض بن موسى من أجلّ من أخرج المغرب من أهل العلم، وكتبه الكبرى لا تزال بين أيدينا تقرأ كلّ يوم، منها " الشفا في التعريف بحقوق المصطفى " وهو ألطف ما كُتب في شمائل الرسول صلّى الله عليه وسلم، فضائله، ثمّ ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، وهو عمدتنا الأساسية في طبقات المالكية إلى أيّام عياض »[147]

يقول ناشرو هذا الكتاب: « وكتاب أزهار الرياض في أخبار عياض، هو كصِنْوه نفح الطيب في أخبار لسان الدين بن الخطيب، كلاهما قد تضمّن ترجمة واسعة خصبة النواحي لعَلَم مفرد من أفذاذ الرجال في المغرب والأندلس، وقد استطاع مؤلفها أبو العبّاس المقّري أن يجعل كلا من صاحبي الترجمة مركزاً لدائرة معارف تاريخيّة، وأدبيّة، تحوي أخبار عصره ومصره، لا بل تستوعب كثيراً من أخبار الأجيال التي تعاقبت في الأندلس والمغرب إلى زمان وجوده، وهما لذلك جديران أن يُعدّا من أعظم الأركان التي يقوم عليها تاريخ تلك البلاد »[148]

نعم وهو كذلك ففي الظاهر ترى أنّ الكتابين للترجمة، ولكن في الحقيقة تجد نفسك في دائرة معارف ضخمة، فقبل أن يدخل المقري إلى ترجمة أحد العلمين يذهب بك بعيداً في أخبار بلادهم، وشؤونها، وأهلها، ووصف مدنها، وهذا ما يجعل من الكتابين موسوعيين

يقول " حسين مؤنس " وهو أحد أفضل من كتبوا عن المقّري « ولا شكّ أنّ المقّري، وقد ترجم لعلم أندلسي، أراد أن يترجم لعلم مغربي حتّى يقوم بحقّ وطنه الذي وُلد ونشأ وتعلّم فيه، غير أننا نلاحظ أن عياضاً وابن الخطيب كانا في حقيقة الأمر أندلسيين مغربيين فقد درس كلاهما، وعاش في المغرب والأندلس، وحياتهما رمز على وحدة التاريخين الأندلسي والمغربي »[149] هذا التمازج بين الأندلس والمغرب هو الذي جعل المقّري يكتب عن العَلمين اللذين يمثلان هذا التمازج

يقول أيضا « وربّما كان هذا هو الذي حفّز المقّري على اختيارهما، لأنّه هو نفسه كان مغربي الميلاد والنشأة، ولكنّه كان أندلسي الرّوح وأنت إذ تقرأ شيئا له تحسّ أنّك تقرأ لأندلسي صميم، كأنّه عاش في هذا القطر حياته كلّها، واختلط حبّه بدمائه، وهو في الحقيقة قد تبنّى الأندلس بعد ضياعه، وقام في بلاد المشرق يتحدث عنه، ويذكّر الناس بمحاسنه، ولولا أنّ العبارة ثقيلة لقلنا إنّ كتابه الأوّل أعظم وأجمل مرثية كتبها عربي عن الفردوس المفقود »[150]

---

[147] ينظر: حسين مؤنس ص47

[148] المقّري: أزهار الرياض في أخبار عياض ج1 مقدمة الناشرين أ، ب، تح مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة 1939

[149] المرجع السابق ص47

[150] نفسه ص 47 و48

هذا عن شخصية المقّري التي لابُدّ من فهمها أكثر لفهم كتبه، حيث يذهب " حسين مؤنس " أنّ المقّري في حد ذاته كان يمثّل هذا المزيج للعروبة في مشارقها ومغاربها لهذا قال « وحنين المقّري إلى الأندلس الذي لم يره، وانتسابه الروحي إلى بلد عربي مضى مع أمس الدابر هو الذي جعل منه أديباً ومفكّراً عربيّاً إسلامياً بصورة قلّ أن نجدها عند غيره؛ فهو أندلسي مغربي جزائري مصري شامي، وبلاد العرب كلّها أوطانه »[151]

وبالعودة إلى أزهار الرياض فإنّنا نجد تشابهاً بينه وبين نفح الطيب يقول ناشروه « وبين الكتابين وجوه من الشبه، وتشابه في المزايا لا نريد إحصاءها ... وبحسبنا أن نذكر هذا المنهج الذي انفرد به دون أكثر كتب التراجم العربيّة القديمة، فإنّ مؤلّفنا الشيخ المقّري يرسُم للترجمة خطّة واضحة، ويرتّب عناصرها ترتيبا حسنا، ويتغلغل في التفاصيل ويتعمّق، ويتتبع أخبار المترجَم حتّى قبل ولادته، ويتجسّس عن أوليته، وأسرته، ويبحث عن نشأته في صباه وشبابه وكهولته، ثمّ يذكر شيوخه الذين أخذ العلم عنهم ...ويخصّ بالعناية التّتاج الأدبي للمترجم، ويذكر تآليفه وتصرفه وعمله في خدمة السلطان، ووفاته وآراء الناس فيه »[152]

هذا عن التشابه بين الكتابين، أمّا الاختلاف بينهما فنجد أنّ « كتاب المقري عن عياض يختلف عن كتابه عن ابن الخطيب، فإنّ ترجمة عياض في حقيقتها قصيرة وحياته كرجل كانت بسيطة قليلة الأحداث، ولكنّ المقّري اتخذها وعاء يصبّ فيه ما فاته ذكره في النفح، ومن ثمّ فهو مجموع شذرات، ومقتطفات، وحكايات، وأشعار من كلّ لون، و في هذا الكتاب تتجلى لنا ظاهرة الاستطراد على أوسع صورها وفي معظم أجزاء الكتاب يختفي الخيط الرئيسي، ويصبح الكتاب مجموعة من المختارات والتراجم حتّى ليشبه من بعض الوجوه " مستطرف " الأبشيهي»[153]

أمّا عن منهج الكتاب فيقول ناشروه « منهج المؤلّف في أزهار الرياض ونفح الطيب متأثراً تأثراً ما بمنهج لسان الدين بن الخطيب في كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة، فإنّ هذه الكتب تتشابه في العناصر التي تتألّف منها الترجمة، وفي أسلوب الإنشاء، إلّا أنّ لسان الدين كان أميل إلى مجانبة الاستطراد الذي فشا في تواليف المقري، وطبعها بهذا الطابع الخاص »[154] وقد ذُكر سابقا أنّ أسلوب المقّري في الكتابة هو مزيج لأسلوب الجاحظ و أسلوب ابن الخطيب

أمّا مكان وزمان تأليف الكتاب فقد « ألّف المقّري كتاب أزهار الرياض في مدينة فاس، في المدة التي بين سنتي 1013و1027ه إذ كان قد نزح عن وطنه لأسباب سياسيّة، واتخذ فاس مقراً له، وكان الباعث على تأليفه رغبة أهالي بلده تلمسان في التعريف بالقاضي عياض، عالم المغرب الأوسط، وقاضيه الأشهر، وقد ألمّ في هذه الترجمة بكثير من شؤون بلاد الأندلس، وذكر طائفة من أخبار لسان الدين بن الخطيب، وأحوال المسلمين في عصر الجلاء عن الأندلس على سبيل الاستطراد»[155]

---

[151] المرجع السابق ص48

[152] ينظر: المقّري أزهار الرياض مقدمة الناشرين (ب، د)

[153] حسين مؤنس ص48

[154] المصدر السابق أزهار الرياض مقدمة الناشرين (د)

[155] نفسه (ه)

لكن بماذا يمتاز أزهار الرياض عن نفح الطيب؟ « وقد يمتاز أزهار الرياض فوق اشتماله على ترجمة القاضي عياض، بطائفة كبيرة من الأخبار، والنصوص المغربيّة والأندلسيّة التي لم ترد في نفح الطيب، ولا في غيره من الكتب المطبوعة حتى الآن، وإنّما بادت أصولها، أو هي لاتزال سرّاً مطويّاً في خزائن الكتب لم تنشره المطابع بعد »[156]

للمقّري مؤلّفات أخرى قيّمة، لكنّها لا تقارن بمؤلّفيه الشهرين و قد صنعا له شهرة واسعة، وهما في التعريف بالأندلس والمغرب، لهذا يقول حسين مؤنس « ممّا يدل على أنّ الرجل كان إذا خرج عن الأندلس والمغرب لم يجد ما يؤلّف فيه إلّا البسائط، وربّما كان هذا هو الذي جعل طريقه في مصر عسيرا، فقد أتى يطلب مشيخة أي أستاذية، من مشيخات الحديث في بلد جمع الفحول في ذلك الميدان وإن كان هو قد قرأ البخاري سبع مرات، فقد كان في مصر من قرأه عشرين أو ثلاثين مرّة، وسط هؤلاء أحسّ الرجل أنّه ينفق وقته عبثا»[157]

والمقّري لم يكن يحسب أنّ شهرته تأتيه من هذا الجانب؛ أي من جانب معرفته العجيبة والفريدة بأخبار المغرب والأندلس، وإنّما كان يطمح في أن ينال هذا عن طريق الإمامة والمشيخة، لكنّه وجد في مصر شيوخ المشائخ الذين لا يخفى على أحد مدى علمهم وفقههم في علوم الدين، واللغة والحديث، ولكن يبقى تميّز المقري هو بموسوعيته وعلمه الغزير، ومعرفته الكبيرة بأخبار المغرب والأندلس بتفاصيل دقيقة لا توجد إلّا في كتبه، ساعده في ذلك كثرة محفوظه، وقدرته العجيبة على الاستطراد، وسرد الأخبار

والجدير بالذكر كذلك هو هذه الطريقة الرائعة، أو القالب الفني الذي صبّ فيه المقّري ترجمته للقاضي عياض فقد قسّم كتابه إلى ثمان رياض هي :

الأولى: روضة الورود في أولية هذا العالم الفرد

الثانية: روضة الأقحوان في ذكر حاله في المنشأ والعُنْفوان

الثالثة: روضة البَهار في ذكر جملة من شيوخه الذين فضلهم أظهر من شمس النهار

الرابعة: روضة المنثور في بعض ما له من منظوم ومنثور

الخامسة: روضة النّسْرين في تصانيفه العديمة النظير والمثيل

السادسة: روضة الآس في وفاته وما قابله به الدهر الذي ليس لجرحه من آس

السابعة: روضة الشقيق في جُمل من فوائده، ولمع من فرائده المنظومة نظم الدُّر والعقيق

الثامنة: روضة النّيلوفر في ثناء الناس عليه، وذكر بعض مناقبه التي هي أعطر من المسك الأذفر[158]

ولا يخفى على أحد مدى جمال هذه الخطة، وحسن انتقاء ألفاظها، وسجعها الجميل الذي يُظهر براعة الكاتب في مجال التصنيف وفي مجال النثر الفني يقول « فدونك أيّها الناظر روضاتِ أزهار وجنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار، أبوابها ثمانية، وقُطوفها دانية، تعطّر منها نسيم الصِّبَا بزهر الآداب، وسما إلى محاسنها من تعلّق من التاريخ بأهداب؛ لم أُسبق إلى مثلها فيما رأيت، وإن بَعُدْتُ فيها عن المَهيع المطروق ونأيت؛ والإنسان مُغْرَمٌ بِبُنيّات أفكاره، وإن قُوبل ما صَدر منه بإنكاره »[159]

---

[156] المصدر السابق أزهار الرياض ج1(ه)

[157] حسين مؤنس ص49

[158] ينظر المقري أزهار الرياض ص17

[159] نفسه ص18

وهو فعلا لم يُسبق لهذه الخطّة وهذا القالب الفني الرائع ــفيما نعلم ــ إذ أغلب كتب التراجم تكون على طريقة سرد علميّة، ولا تكون في قالب فني جميل كما هي عند المقّري في ترجمته للقاض عياض

المطلب ب: الحنين في أزهار الرياض.

رأينا سابقاً في نفح الطيب أنّ المقّري، وفي مقدّمته حنّ إلى وطنه، وكذلك نجده يفعل في هذا الكتاب؛ إذ قبل أن يدخل في صلب حديثه عن القاضي عياض حنّ واشتاق إلى تلمسان وكان ممّا قال « إنّه لمّا سبق القضاء وجرت الأقدار، بارتحالي عن الوطن المحبوب والقَرار، بعد أن شَمِمْتُ عَراره * التّجْدِيّ، ولا أشْجان ولا أكدار في عشيّة لم يكن من بعدها عَرار، ونَزَحْتُ عن بلد به الوالدُ وما وَلَدَ مَحَلِّ قَطْعِ التّمائم* وفَتْح الكمائم، سقى الله عِهَاده صَوْبَ الغمائم:

بلدٌ تحفُّ به الرياضُ كأنّهُ وجْهٌ جميل والرياضُ عِذَارُهُ

وكأنّما واديه مِعْصَمُ غادةٍ ومن الجسور المحكَماتِ سِوارُه »[160]

أشار هنا إلى ارتحاله عن وطنه الذي وُلد فيه وشبّ، ذلك الوطن الجميل الطّيب كما يُفهم من كلامه، ويشير في موضع آخر إلى شبابه في تلمسان « وكان ذلك وغُصْن النشاط يانع وبُرْد الشباب قَشيب؛ وشَمْل النفس مجتمع دون مانع، وكأس الأنس مُزج بتسنيم القُرب وشِيب *؛ وفَوْد * الرأس غير خاضع ولا خانع، إذ لم تطرق ساحته ولم تَجس خلاله جيوش المشيب؛ حَللتُ الحضْرة الفاسيّة ــ حاطها الله ــ ...»[161] هنا يذكر شبابه في تلمسان ورحلته إلى مدينة فاس المغربية

ويقول المقّري أنّه أثناء وجوده في فاس كانت ترد إليه رسائل من إخوانه « و لم تزل كتب الأقارب والإخوان ترد عليّ، وتَثني عِنَانَ اعتنائها إليّ وتكَرّر وتعدّد، وتنتاب وتتردّد، وتتنوّع، وتتجدّد، فأرتاح إليها ارتياحَ الغُصْنِ إلى هزّته، وأحِنّ إليها حنين كُثيّرٍ إلى معاهد عَزّته:

يامَنْ يُذكّرني حديثَ أحبتي طابَ الحديثُ بِذكْرهم ويطيبُ

أعِدِ الحديثَ عليّ منْ جنباتِه إنّ الحديثَ عن الحبيب حبيبُ »[162]

هذه الرسائل التي كانت ترد إليه وهو في المغرب، هي التي كانت تحرّك أشواقه وأحزانه شوقاً إلى وطنه تلمسان، ولذلك قال « وكثيراً ما يحرّك ذلك مني كامن شوق، شَبّ عمرُه عن الطّوْق*؛ وأجد من لَوَاعِج الأُوَار* ما وجده الفرزدق عند مباينة التّوار:

بلَدُ الجزائرِ ما أمرّ نواها كَلِفَ الفؤادُ بحبّها وهَوَاها

يا عَاذِلي في حبّها كُنْ عَاذري يَكْفيك منها ماؤُها وهَواهَا »[163]

---

[160] المصدر السابق أزهار الرياض ج1ص3و4/ عراره= العرار هو بهار البر وهو نبت طيب الريح، يشير إلى قول الصمّة القشيري

تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشيّة من عرار

التمائم= خرزات كان الأعراب يعلقونها على أولادهم يتقون بها النفس والعين بزعمهم، يريد بقطع التمائم أنّه شبّ و ترعرع

[161] ينظر نفسه ص4/ تسنيم= ماء في الجنة/ شيب= خلط (بالبناء للمجهول) /الفود= معظم شعر الرأس

[162] نفسه: ص5

[163] نفسه ص5 / شب عن الطوق= جاوز حد الاحتمال، مأخوذ من المثل "كبر عمرو عن الطوق" قاله جذيمة لعمرو بن عدي ابن اخته الرقاش، حين رأى عليه طوقا من ذهب كان له في صغره، وقد طوقته به أمّه بعد غيبة غاب عنها في حديث طويل ذكره الميداني في أمثاله، وصاحب القاموس في مادة (طوق) / لواعج الأوار= أي حرق نار الشوق

عندما كانت ترد تلك الرسائل عليه فإنّها كانت تُحرّك أشواقه، فيحنّ إلى بلده الجزائر وبالتحديد تلمسان، والبيتان يعبران عن مدى حبّه لهذا الوطن، ثمّ قال « والحنين إلى الوطن مجال لكلّ حُرّ ومِضْمار

إيهٍ أحاديثَ نعمانٍ وساكنهِ إنّ الحديث عن الأحباب أسمارُ

وليس بمُسْتَنكرٍ حنينُ الناب* إلى عَطَنه * والمرء إلى محلّ نشأته ووطنه، وقد روينا في الصحيح من حنين سيّد الوجود عليه الصلاة والسّلام وأصحابه إلى مكّة ما لا يجهله إلّا من هو عن العلوم بمعزلٍ ومن الأبيات السائرة:

كمْ منزلٍ في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبداً لأوّل مَنْزِلِ »[164]

ذكر هنا أنّ الحنين مجال لكل حرّ وهذا صحيح، وذكر كذلك حنين سيّد الوجود صلّى الله عليه وسلّم وهو القدوة

ثمّ قال « وربّ ذِكرى أثارت الأشواق وحرّكتها، وأنشبت في حبائل البُوس وتركتها؛ وكم ماجدٍ بكى لفقد المشاهد، واهتم لبعد المعالم والمعاهد:

سلامٌ على تلك المعاهد إنّها مراتع ألّافي وعَهْد صِحابي

و يا سَرْحة الحيّ أنعمي فلطالما سكبتُ على مثواكِ ماء شبابي

فلّله تلك المعاهد، ما أبهج مُحيّاها، وحاط بعين كلاءته تلك المشاهدَ ما أطيب رباها، حين باكرها الوسمي* وحيّاها»[165]

يتذكّر هنا ديار أهله وقومه في تلمسان وأرضها الخضراء النضِرة، وهوائها النقي الصافي، خاصّة عند أمطار الربيع التي تُثير روائح طيبها وأزهارها، وهذا ما يؤكّد عليه أيضا في قوله « طالما ذكّرتِ الأُبُلّةَ وشِعْب بوّان* وأنستْ صُروفَ الزمان الحوّان، وأنبتت أزهار أنس ذات ألوان وثمار ونخل من القُرب، صِنوانٍ وغير صنوانٍ، والشمل مجتمع بالجيران والإخوان؛ والروض مَطْلُول النبات* مُخْضَلُّ الجنبات *مُفوّف الخمائل* متضوع الشمائل، مُنْساب الماء، مُنْجاب السماء، والغصون متأوّدة الأعطاف، دانية الجَنَى والقِطاف، والنسيم يَعْبق نشرا، والجوّ يتألّق رونقا، فتقصُر عنه أوصاف ذوي الإنصاف »[166]

هذه أوصاف تلمسان زمن الربيع حيث الطبيعة الساحرة، والنسيم العليل، والماء المسكوب، وهذا ما يحنّ المقّري إليه، وممّا قال أيضا « والزّهر حيّانا بثَغْر باسمٍ والنّهر قابلنا بقلبٍ صافي

ولآلي الأنداء في الغدير غَرْقَى، و دموع النهر لا تَرْقا، والزهر يسقط، وأكُفّ الريح تكتب، والغمامُ يُنَقّط:

كأنّ أكُفّ الريح تكتب أسطراً على النهر إلّا أنّ أحْرفها زُرْقُ

فتحني عليهن الغصونُ قُدودها لتقرأها جَهْراً من الوَرقِ الوُرْق»[167]

يُصوّر لنا المقّري هذا المنظر الطبيعي الرائع في بلاده تلمسان حيث الأزهار والأنهار، وما تثيره الرياح من روائح هذه الأزهار التي يتقاطر عليها ومنها الندى، وفي هذا المنظر ما يُلفت الانتباه

---

[164] المصدر السابق أزهار الرياض ج1 ص6/ الناب = الناقة المسنة/ العطن= وطن الإبل ومبركها حول الماء

[165] نفسه ص6/ الوسمي= مطر الربيع الأول؛ لأنّه يسم الأرض بالنبات ويليه الولي وهو المطر الثاني

[166] نفسه ص7و8 / الأبلة= بلدة على شاطئ دجلة البصرة/ شعب بوان= بفارس وهو والأبلة من متنزهات الدنيا التي سار ذكرها/ مطلول النبات= مندى بماء الطل/ مخضّل= مبتل/ الجنبات = النواحي/ مفوف= فيه بياض/ الخمائل = جمع خميلة وهي الأرض ذات النبات

[167] نفسه ص8

ويقول أيضا أنّ الحمامة تُثير أشواقه بصوتها الحزين « فأكرِمْ بها من ذات طوْق، عبّرت عمّا في ضميرها من جوى وشوق، فساقت لواعجَ الأفكار أي سَوْق، وبينها وبين الصبّ فرْق، عند ذوي الذّوْق:

وتَرَنّمتْ ذاتُ الجناح بِسُحْرةٍ بالواديين فهيّجتْ أشواقي
وَرْقا تعلّمت البُكا والبثّ مِنْ يَعقُوْبَ و الألحانَ من إسْحاق*
أنّى تُضاهيني هوى وصبابةً وأسى وفَرطَ جوى وفَيْضَ مآقي*
وأنا الذي أملي الهوى من خاطري وهي التي تُملي من الأوراق »[168]

بعدها ذكر شبابه، وتلقيه العلم على يد شيخه وعمه " سعيد المقّري" « بعدما نَعِمْنا بُرْهة من الزّمان في ظلال الأمان؛ وقطعنا نُبْذة من الشباب، في مواطن الأحباب؛ ما بين دراسة ودراية ورواية، وممارسة أمور تُبْعد عن طُرق الغواية؛ وتحبير طُروس، وملازمة دروس، ومثول بين يدي أشياخ مجالستهم نامية الغُروس، وخصوصا شيخهم الذي فضله لا يفتقر إلى دلالة؛ عمّنا مُفْتيها سيدي سعيد بن أحمد المقّري، شكر الله خِلالَه، فهو شيخ أولئك الأعلام الذين ورثوا العلم عن غير كلاله، وعمروا ربوع المجد، وتفيّئوا ظلاله، وأرشدوا إلى سُبُل الهدى، وأزاحوا عن الضلالة »[169]

لا يخفى علينا أنّ المقّري كان من بيت علم وجاه في تلمسان، وكانت لأهله مكانة عالية فيها، بل في المغرب كلّه، وهذا ما كان المقّري يحنّ إليه لهذا قال أيضا « وعمَرت أرضهم بكلّ مجد وجلاله، وإن نَبَتْ بي لا عن جَفوة ولا ملاله فآها على ذلك العصر ما أبهاه وأجمله! وأتمّه وأكمله؛ عصر يكاد يكلّمنا فيه الجمادُ ، وتُرْوينا الثّماد*؛ وتُحيّينا العشيات والبُكَر، و لا تَنْتابنا التّعلّات ولا الفِكر، فإن سألنا فعنه في الحقيقة، وإن صرّحنا أو كنينا فنعني حِمَاه وعقيقه »[170]

ثم أنشد هذه الأبيات يعبّر فيها عن شوقه:

« نُسائلُ عن ثُماتٍ بحُزوى وبانُ الرّمْل يعلم ما عَنينا *
وقد كشِفَ الغِطاءُ فما نُبالي أصرّحنا بذكرى أم كنينا
ولو أنّي أنادي يا سُليمى لقالوا ما أردت سوى لُبينى
ألا لله طَيْفٌ كان يسقي بكاسات الكرى زُورا ومَينا
فأمسينا كأنّا ما افترقنا وأصبحنا كأنا ما التقينا »[171]

ويقول أيضا أنّه حاول إطفاء لهيب الشوق « وهأنا الآن أحاول إطفاء لهيبٍ بالضلوع وَقَدْ* أعالجُ أدواء سُقْم جلّ وكيف لا وقد:

رُوّعتُ بالبَيْن حتّى ما أُراعُ به وبالمصائب في أهلي وجيراني
لم يترك الدهر عِلْقاً أضنُّ به إلّا رماهُ بفقد أو بهجرانِ »[172]

---

[168] المصدر السابق أزهار الرياض ج1 ص 9/ يعقوب= هو يعقوب النبي والد سيدنا يوسف عليهما السّلام ، وإسحاق = هو إسحاق بن إبراهيم الموصلي ؛ من شيوخ المغنين في الدولة العبّاسيّة / تضاهيني= تشاكلني/ المآقي= مجاري الدموع من العيون

[169] نفسه ص 10

[170] نفسه ص10/ الثماد= جمع ثمد وهو الماء القليل

[171] نفسه ص11/ الثمام = نبت قصير ضعيف لا يطول، حزوى (بالضم) جبل من جبال الدهناء/ البان = الكثيب من الرمل

[172] نفسه ص11/ وقد= اتقد واشتعل

ويقول المقّري أنّه في هذا التاريخ الذي أُرسلت إليه كتب (يقصد رسائل) حرّكت أشواقه ، وأحزانه « وفي هذا التاريخ الغريب، وردتْ كُتبٌ من تلك الناحية حركت شَجْوَ الغريب؛ والشوق إلى لقائهم، والتّوقُ إلى ما يرد من تلقائهم، يقتادان القلب بزمام فينقاد، ويوقدان نار الوجد بين الضلوع أي إيقاد:

هي الدار لا أصحو بها عن علاقة لأمر لنا بين الجوانح مُضْمَرِ

فجاد على أرجائها الغيثُ إنّها منازل جيران كرام ومَعشر »[173]

بهذين البيتين ختم المقّري حنينه إلى وطنه في أزهار الرياض، وبعدهما دخل في صلب موضوع كتابه، وهو القاضي عياض وما تعلّق به من أخبار

[173] المصدر السابق ص11

الخاتمة

الخاتمة

وفي الأخير يمكننا الخروج من هذا البحث بجملة من النتائج يمكن إيجازها في النقاط التالية:

✯ الحنين إلى الوطن قديم قِدم الإنسان، وهولا يقتصر عليه فحسب بل حتى الحيوان يحنّ إلى وطنه ومسكنه كالإبل والطير وغيرها

✯ للحنين علاقة قوية بالغربة إذ هي أهمّ سبب من أسبابه؛ فالاغتراب عن الوطن يثير الشجون والأشواق والأحزان، وقد عرفه العرب قديما منذ الجاهليّة، وأكبر دليل عليه هو شعر الأطلال، وبكاء الديار، والأحبّة، وهذه غربة مكانيّة

✯ وهناك نوع آخر من الغربة وهو الغربة الاجتماعية، وهي أن يكون المرء غريبا في مجتمعه كما حدث مع المتنبي الذي كان يحسّ بهذا النوع من الغربة، فلم يرض بالعيش في وطنه العراق، فكان كثير التنقّل والترحال

✯ وممّن عانى الغربة أيضا نجد أبا حيّان التوحيدي الذي كان غريبا في مجتمعه، وقد عبّر عن ذلك بأبلغ العبرات في كتابه الإشارات الإلهية وكذلك في كتابه الإمتاع والمؤانسة، ومن أسباب غربته في وطنه الفقر وفساد حكّام عصره

✯ والأشد من هذا هو غربة الموت التي وجدناها عند مالك بن الريب الذي رثى نفسه وهو حي، وتمنّى أن يموت في وطنه بدل الموت في الصّحراء

✯ تتعدد أسباب الحنين إلى الوطن فمنها فقدان الأحبّة والشوق إليهم، ويكثر هذا في الشعر الجاهلي، فقد بكى الشعراء الديار والأحبة ووقفوا عليها مطولا

✯ من الأسباب كذلك الرحلة والسفر إذ يحنّ المرتحل عن وطنه إليه، وقد مثّلنا لذلك بأبي العلاء المعرّي الذي سافر لطلب العلم من الشام وهي وطنه إلى العراق

✯ ومن الأسباب كذلك النفي والأسر، وهي من أقوى أسباب الحنين، وقد مثلنا للنفي بعمر بن أبي ربيعة الذي نُفي إلى اليمن فحنّ إلى بلده ووطنه المدينة المنوّرة، ومثّلنا للأسر بأبي فراس الحمداني الذي أسره الرّوم فقال قصائده الفريدة في الحنين والشوق إلى وطنه وأهله

✯ حظي موضوع الحنين إلى الوطن باهتمام الكتّاب، فألّفت فيه كتب خاصّة به، وأُفردت فصول من كتب له، وقد ذُكر بعضها في متن البحث حسبما جاء به يحيى الجبوري في كتابه

✯ أمّا الفصل التطبيقي على شخصيّة المقّري التلمساني، من خلال كتابيه نفح الطيب، وأزهار الرياض، فقد وجدنا من خلال الاطلاع على سيرته أنّ أصوله تعود إلى تلمسان وهي التي حنّ إليها

✯ وجدنا كذلك في سيرته مدحا كبيرا في حقّه، فالرجل موسوعي بامتياز، ولهذا كان المحبّي صاحب خلاصة الأثر يقول في حقّه أنّه حافظ المغرب، جاحظ البيان، صافي الذهن، قويّ البديهة، كان آية باهرة في علم الكلام، والتفسير والحديث والأدب، وأوصاف المحبّي هذه لم يُطلقها اعتباطا، بل كانت فعلا في هذا الرجل، ولا يؤكّد ذلك إلّا أن تقرأ كتبه لتكتشف صدق كلام المحبّي، كما يؤيدها أغلب الذين ترجموا له

✯ بظهور المقّري شهد النثر الفني تقدّما باهرا على يديه، وكان قبل ظهوره قد أصابه شيء من الكساد والركود، فكلّ ما كان يُكتب في عصره كان عبارة عن شروح في الفقه والمتون، فأعاد المقري النثر الفني لعصوره الزاهية فكانت كتابته أشبه ما تكون بكتابة الجاحظ ولسان الدين بن الخطيب

✯للمقّري مولّفات كثيرة عظيمة النفع والفائدة، كما شهد له بذلك الكثير من المحققين، وأشهرها نفح الطيب وأزهار الرياض

✯ شاع في مؤلّفات المقري كثرة الاستطراد حتّى لتظنّ أنّك تقرأ للجاحظ فكلاهما كان كثير الاستطراد والخروج من الموضوع الأصلي إلى مواضيع أخرى فرعية

✯ جال المقّري في كثير من دول المغرب والمشرق، فزار عدّة مدن مغربيّة والتقى فيها الكثير من الشخصيّات والعلماء، وتولى أرفع المناصب العلمية كالإمامة والمشيخة، كما زار العديد من دول الشرق فزار مصر والشام، ومكّة والمدينة، وفلسطين، واستفاد منها وأفاد إذ ألقى دروس العلم والوعظ واجتمعت حوله جموع غفيرة

✯ عاش المقّري في عصر مضطرب سياسياً ما جعله يرتحل عن المغرب الذي عرف هذا الصراع والاضطراب بسبب التناحر على السلطة

✯ حنّ المقّري إلى وطنه في كتابين من كتبه وهما نفح الطيب وأزهار الرياض؛ أمّا نفح الطيب فكان ثمرة زيارته لدمشق حيث كان قدّ حدّث تلاميذه عن لسان الدين بن الخطيب، فطلب منه الشاهيني تأليفه فألّفه استجابة له في مصر

✯ وهذا الكتاب موسوعي بامتياز، وهو أهمّ وثيقة تاريخيّة وأدبية عن تاريخ الأندلس وحضارتها، حيث شمل مدنها وأهلها وعلماءها ومن وفد إليها وخلفاءها من فتحها إلى زوال الدولة الإسلامية منها بسقوطها في أيدي الكفّار كما هي الآن، وهذا بتفصيل دقيق، كما احتوى على عدد غير قليل من التراجم لعدّة أعلام

✯ في عرض هذا الكتاب قدّم المقّري تعريفاً لتلمسان بلده الذي حنّ إليه، وأنشد وقال قصائد في مدحها، وترجم لأحد أعلامها الشيخ أبو مدين، يُظهر هذا مكانة تلمسان في قلبه إذ جعلها في قلب كتابه عن الأندلس

✯ أمّا الحنين في هذا الكتاب فقبل أن يخوض في موضوع كتابه الأصلي، سجّل في عدّة صفحات من مقدمته حنيناً إلى وطنه

✯ ارتكز هذا الحنين على ذكره لرحلاته، وحزنه على فراق وطنه، استشهد واستعان بعدّة قصائد وأبيات للتعبير عن مشاعره تجاه هذا الوطن الحبيب إلى قلبه

✯ ذكر فيما ذكر جمال تلمسان وجمال هوائها ومائها، وأنشد وقال عدداً من القصائد والأبيات في ذلك، كما كانت بعض ظواهر الطبيعة تذكّره بها، كالحمام والرياح والنسيم، والبرق وغيرها، ممّا يثير شجونه وأحزانه

✯ كتب المقّري هذا الحنين بلغة راقية، استعمل فيها أجمل وأندر الألفاظ والأبيات وهذا لأنّه كان صادق المشاعر

✯ أمّا أزهار الرياض فقد كتبه في ترجمة القاضي عياض وبين الكتابين وجوه شبه فكلاهما في الترجمة؛ فالأوّل في ترجمة عَلَم أندلسي هو لسان الدين بن الخطيب، والثاني في ترجمة عَلَمٍ مغربي هو القاضي عياض، إلّا أنّ أزهار الرياض يختلف عن نفح الطيب بطريقة عرضه الفريدة فقد جعل منه المقّري حديقة أو روضة

✯ والحنين فيه لا يختلف كثيراً عن الحنين في نفح الطيب، فقبل أن يخوض في ترجمته للقاضي عياض حنّ في مقدمته أيضاً إلى وطنه، إلّا أنّه كان أقصر من حنينه في نفح الطيب، وارتكز على بعض الكلام في الشوق إلى الوطن، وبعض القصائد والأبيات

✯ وكانت غاية وأمنية المقّري هي أن يعود إلى هذا الوطن الحبيب إلى قلبه، إلّا أنّ الأقدار لم تشأ له ذلك، فقد مات رحمه الله في مصر وهو لم يكره مقامه في المشرق فقد نال فيه أعظم المناصب العلمية كالمشيخة والإمامة في أشهر المدارس والمساجد في ذلك الوقت خاصّة في الشام التي أحبّها وأحبّ أهلها، وإنّما الذي جعله يحنّ إلى تلمسان والمغرب عموماً هو الإخلاص والحبّ والوفاء لأرضه وأصله التي هو منها وجدّه وجدّ جدّه كما قال، فجذوره منها، وحنينه لها، وعلى هذا مات، وحبّ الأوطان من الإيمان.

والله نسأل أن ينفعنا بهذا، وأن ينفع به غيرنا.

مصادر ومراجع البحث:

1 / إبراهيم الأبياري: الوطن في الأدب العربي وزارة الثقافة والإرشاد القومي المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة 1962

2/ أبو فراس الحمداني: ديوانه شرح خليل الدويهي دار الكتاب العربي ط1992/2

3/ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي دار الغرب الإسلامي بيروت ط1998/1

4/ ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ت إحسان عبّاس دار صادر بيروت/1978

5/ ابن منظور: لسان العرب إصدار وزارة الأوقاف السعودية (د ط)

6/ أبو نواس: ديوانه برواية الصّولي ت بهجت عبد الغفور الحديثي دار الكتب العلمية أبو ظبي ط2010/1

7/ الأصفهاني: الأغاني ت إحسان عبّاس دار صادر بيروت ط2002/1

8/ امرؤ القيس: ديوانه ضبطه مصطفى عبد الشافي دار الكتب العلمية بيروت

9/ البغدادي: خزانة الأدب ت عبد السلام هارون ط مكتبة الخانجي القاهرة

10/ التوحيدي: الإشارات الإلهية ت عبد الرحمان بدوي ط فؤاد الأول القاهرة

11/ التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة ت أحمد جاد دار الغد الجديد القاهرة ط2009/1

12/ الثعالبي: يتيمة الدّهر في محاسن أهل العصر ت مُحَمَّد مفيد قميحة دار الكتب العلمية بيروت ط1983/1

13/ الجاحظ: الحنين إلى الأوطان دار الرئد العربي بيروت ط2/ 2008

14/ حاتم الطائي: ديوانه شرح أحمد رشاد دار الكتب العلمية بيروت ط1/ 2003

15/ حسين مؤنس: المقّري أغرب سفير ضمن كتاب الأندلس صفحات مشرقة لنخبة من الكتّاب وزارة الإعلام مجلة العربي الكويت ط1/ 2004

16/ الصفدي: الوافي بالوفيات ت أحمد الأرنأووط وتركي مصطفى دار إحياء التراث العربي بيروت ط2000/1

17/ عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر بيروت ط1980/2

18/ عبد القادر القط: في الشعر الإسلامي والأموي دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت 1979

19/ عزّة حسن: شعر الوقوف على الأطلال دمشق 1968

20/ عمر بن أبي ربيعة: ديوانه قدّم له فايز مُحَمَّد دار الكتاب العربي ط1996/2

21/ عنترة: ديوانه ت مُحَمَّد سعيد مولوي المكتب الإسلامي مصر (د ط)

22/ المتنبي: ديوانه شرح عبد الرحمان البرقوقي مؤسسة هنداوي القاهرة

23/ المحبي: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (د ط)

24/ محسن الأمين: أعيان الشيعة ت حسين الأمين دار التعارف للمطبوعات بيروت

25/ مُحَمَّد طمّار: تاريخ الأدب الجزائري الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر

26/ مُحَمَّد عبد الغني حسن: المقّري صاحب نفح الطيب الدار القومية للطباعة والنشر

27/ مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب دار الأصالة الجزائر ط2010/1

28/ المقّري: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ت مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة 1939

29/ المقّري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ت إحسان عبّاس دار صادر بيروت1968

30/ المقّري: نفح الطيب ت محيي الدين عبد الحميد مطبعة السعادة مصر ط1949/1

31/ ياقوت: معجم الأدباء ت إحسان عبّاس دار الغرب الإسلامي بيروت ط1993/1

32/ يحي الجبوري: الحنين والغربة في الشعر العربي دار مجدلاوي الأردن ط1/ 2008

المجلات والمقالات الالكترونية

1/ فوزية علي زوباري المعادل الموضوعي في مدائح أبي تمام مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق المجلد 87 ج2

2/ مُحَمَّد سعد الحمام في الشعر العربي ما له وما عليه{ 2008/04/07} {01:09}

3/ مُحَمَّد سعد نجد في الشعر العربي القديم والحديث {2008/04/08} {10:21}

الفهرس

المقدّمة..... (أ ، ب)
الفصل الأول: الحنين إلى الوطن في الأدب العربي (قبل عصر المقّري) 14/1
المبحث 01: الحنين في اللغة والاصطلاح.....1
المطلب أ: لغة.....1
المطلب ب: اصطلاحا.....1
المبحث 02: علاقة الحنين بالغربة.....6/2
المبحث03: دواعي وأسباب الحنين إلى الوطن 12/7
المطلب أ: فقدان الأحبّة والشوق إليهم 8/7
المطلب ب: الرحلة والسفر.....9/8
المطلب ج: النفي والأسر.....12/10
المبحث04: الحنين إلى الوطن عند الكتّاب.....14/13
الفصل الثاني: الحنين إلى الوطن عند المقّري من خلال كتابيه.....45/16
المبحث01: ترجمة المقّري.....16/ 22
المطلب أ: نسبه ومولده.....16
المطلب ب: ثقافته ومؤلّفاته.....19/16
المطلب ج: العصر الذي عاش فيه.....20/19
المطلب د: رحلاته ووفاته.....22/20
المبحث02: الحنين إلى الوطن في نفح الطيب.....38/23
المطلب أ: التعريف بالكتاب.....25/23
المطلب ب: التعريف بتلمسان للمقّري.....27/26
المطلب ج: قصائد في مدح تلمسان.....30/27
المطلب د: الحنين إلى تلمسان في نفح الطيب 38/30
المبحث 03: الحنين في أزهار الرياض للمقّري.....45/39
المطلب أ: التعريف بالكتاب.....42/39
المطلب ب: الحنين في أزهار الرياض.....45/42
الخاتمة.....48/47
مصادر ومراجع البحث:.....50/49
الفهرس:.....51

الملخص:

ظاهرة الحنين إلى الوطن ظاهرة عرفها الأدب العربي قديما وحديثا، فقد حفل الأدب العربي القديم بنماذج كثيرة حول هذا الموضوع، فكتب الشعراء في أوطانهم الكثير من القصائد، وألّف الكتّاب كتبا فيه، ومنهم من خصّص جزءا من كتبه لوطنه وشوقه إليه كما فعل أحمد المقّري التلمساني في كتابيه نفح الطيب وأزهار الرياض، فقبل أن يدخل إلى صلب موضوعه الأصلي لكتابيه حنّ إلى وطنه تلمسان بعبارات تفيض بمشاعر الشوق والحزن على فراق الوطن

الكلمات المفتاحية:

الحنين، الوطن ، المقّري، تلمسان

Summary

The phenomenon of nostalgia for the homeland is a phenomenon known to Arab literature, old and new, as the ancient Arab literature was filled with many models on this subject. Ahmad al-Muqari al-Tilmisani did in his books “Nafh al-Tayyib and Flowers of Riyadh,” before entering into the heart of his topic for his two books “We Come to His Homeland,” Tlemcen with phrases and verses overflowing with feelings of longing and sadness over the separation of thehomeland.